دار قصص
وحكايات
للنشر
الإلكتروني
2021

أنشودة الموت

قصص

رمضان سلمي برقي

أنشودة الموت

أنشودة الموت

قصص قصيرة

رمضان سلمي برقي

دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني
kesasandhekayatpub.blogspot.com

الفهرست

العنوان: أنشودة الموت

النوع الأدبي: قصص قصيرة

المؤلف: رمضان سلمي برقي

رقم الإيداع: 2019/25863

الترقيم الدولي: I.S.B.N | 978-977-85623-4-7

المُدقق اللُغوي: الكاتب بنفسه

اللغة: فصحى

التنسيق الداخلي والإخراج الفني: رمضان سلمي برقي

تصميم الغُلاف: رمضان سلمي برقي

سنة النشر: 2021 pdf

تم النشر بواسطة دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني2021

الدار غير مسؤولة عن أفكار الكُتّاب الواردة بإبداعاتهم؛ الكُتّاب وحدهم المسؤولون عنها.

الموقع الصفحة الجروب

إهداء...

إلى نبع الطيبة؛ أمي الغالية، وأبي (رحمه الله).

إلى جميع إخوتي وأخواتي، وجميع عائلتي وأصدقائي، وأساتذتي..

إلى كل من كانت لهم نصيحة، أو قرأت لهم كُتباً ساعدتني وأفادتني..

إلى مُلهمتي؛ قريتي العزيزة "عرب مطير" المنسيَّة هناك في "أسيوط"..

إلى الحياة؛ المُلهم الأعظم... إلى كل من سيقرأ الكتاب..

إليكم جميعاً؛ أهدي مجموعتي القصصية الأولى ورقياً، بعد خمسة كتب إلكترونيّة.

وما توفيقي إلا بالله...

رمضان سلمي برقي

ماذا ستنجب حياة؛ ضاجعها الموت غَفلة؟

رمضان سلمي برقي

أنشودة الموت

– يا لطيف... إنها قادمة!

يصيح فينا الدليل الذي يتقدَّم قافلة المشاة؛ قافلة تحوي مئات من شيوخ وأطفال ونساء وقليل من الشباب. يمشون من حولي؛ حاملين فوق ظهورهم وأكتافهم أمتعتهم وأكفانهم، وحاضنين رضعهم وحاضنين أحلامهم؛ مكفهرو الوجوه التي تَشابَهَتْ تقاسيمها بتقاسيم ظلام الليل؛ ينظرون إلى السماء فلا يرون النجوم؛ لقد اِسْتُبْدِلتْ بالنجوم رؤوس صواريخ الطائرات، والبراميل المتفجرة، واِسْتُبْدِل بهدوءهم أزيز الطائرات وقصف المدافع، وأزيز الرصاص.

كلما يعوي أزيز طائرات فوق رؤوسنا؛ يسود الهلع، وتعلوا الصرخات.

منذ لحظات؛ قُصفنا بصاروخ؛ أصاب مؤخرة القافلة البشرية فأمسى العشرات منّا رماداً في تعداد المحروقين؛ سُحِقوا فتحولوا إلى عدم! حتى لم يمهلوهم أن ينتشوا الموت!

– لا أريد الموت بسهولة؟

أَصْرُخُ بكل ما أوتيت من قوة؛ أَصْرُخُ وأَنَا أحملق إلى السماء؛ ومن حولى العويل، ومن حولي الأشلاء المتفحمة، أنادي:

– أريد أن أنتشي الموت يا أولاد العاهرات؟

هل سيسمعونني؟ اختفت الطائرة التي أصابتنا وكأنها تنين أسطوري؛ نفث ناره وحلّق بعيداً!

الناس من حولي لا يفقهون ما أقول؛ بل لا يفقهون ما يحدث؛ هم مرتجفون، جاحظو العيون مزعورون؛ يهرولون بتخبط، يلهثون ويدهسون أنفسهم خوفاً من التفحُّم.

تركتُ الجميع يسبقني؛ يمر الجميع أمامي على ضوء القمر الخافت؛ يهرولون بين أطلال المدن الخربة، والصحراء الوعرة، والأسلاك الشائكة، ونتانة رفاة الموتى، وحقول الألغام. يهرولون من الماض الخرب؛ إلى المستقبل المجهول، وأَنَا أتبعهم بتؤدة؛ أدعو بالرحمة لِمَنْ تفحموا وألعن مَنْ أحرقوهم؛ صدري يعلو ويهبط، قلبي يَنْتَفِضُ بصدري؛ أَسْمَعُ أزيز طائرة تقترب؛ أَصْرُخ:

– يارب!

أتمنى أن تكن هي ذاك التنين الأسطوري؛ أريد أن أتدثر بنفثة من لهبه لأرحل!

أتوَقَفُ عن السير؛ أنظرُ لأعلى؛ الصوت يقترب أكثر فأكثر؛ دويُّ المدافع يأتي من بعيد، صدى الانفجارات يتردد من فينة لأخرى. أَنْتَصِبُ منتظراً انتشاء سكرة الموت كانتشاء سكرة الخمر! لحظات ويبتعد ذاك الصوت الذي خلته طائرة؛ أَمْتَعِضُ، أُفَكِر، ثم أنطلق لاهثا لألحق بالقافلة الضائعة بين الأطلال وأمواج الظلام، ألحقهم وأسبقهم؛ أتوقف، أستدير؛ أَصْرُخ فيهم جميعاً:

– أَنَا أعرف طريق النجاة مما نحن فيه!

تتوَقَفْ القافلة؛ ينتشر الهمس بين الجميع؛ يصيحون:

– كيَّفَ سننجوا؟

– أين الطريق؟

– الحدود الأردنية؟

– الحدود التركية؟

– الأمم المتحدة؟

وأجيبهم بصوت جهور، أقول:

– بل السماء!

فيعودون لتساؤلاتهم، يصرخون:

– هل ستأتِ طوافات إنقاذ؟

– هل سيتوقف القصف؟

أَصْمُتُ برهة ثم أَصْرُخ:

– سنبتهل؛ سننشد، سندعوا الله!

تنتشر الجلبة بينهم، أقول:

– أنشودة اللعنة والنجاة!

تسود البلبلة؛ أَتَحَرَكْ بينهم، أصْرُخ فيهم:

– سنتعاون جميعاً بالأنشودة، ونناجي الرب كي ينجنا من التيه!

يغمغم الجميع بالموافقة؛ ويبدأون بتساؤلاتهم من جديد، يقولون:

– أَنَا سني!

– أَنَا شيعي!

– أَنَا مسيحي!

– أَنَا علوي!

– أَنَا اسماعيلي!

– أنا دروزي!

– كيَّفَ سننشد !؟

فأجيبهم؛ أقول:

– أمِّنوا على ما سأُنشده؟

وأراهم يتأهبون بصدق أملاً في النجاة، فأبدأ بالابتهال والدعاء والانشاد، أَصْرُخ:

– اللهم إنا ضعفاء محتاجون إلى قوتك، وتائهون محتاجون إلى هدايتك، اللهم نجنا بقدرتك... اللهم انزل لعنتك من السماء على كل مَنْ كانوا سبباً في تشريدنا، اللهم انزل لعنتك من السماء على كل مَنْ كانوا سبباً في تفحمنا، سواء أكانوا من داخل البلاد أو خارجها، بقوتك يا خالق السماوات والأرض؟

وما إن أصمتُ معلناً الانتهاء من الأنشودة؛ حتى يردد الجميع من حولي وأَنَا معهم، نقول:

– آمين؟

ونقف جميعاً شاخصوا الأبصار؛ نترقب أي إشارة من السماء توحي بنزول أي لعنة بالقرب منا، أو أي سبيل إلى النجاة.

وفجأة؛ تظهر الإشارة، أَصْرُخ:

– الله أكبر! الله أكبر!

أَنَا الآن جد سعيد؛ أنها الإشارة، أجل؛ إنه شعاع ضوء أبيض جميل، يَهْبِطُ من السماء في أُبَّهة ورونق، أَنْظُرُ من حولي فأجد الجميع مبلسون من هول المفاجأة، يرددون بصوت محشرج:

– صاروخ!

بيد أنهم متسمرون لا يتحركون قيد أنملة؛ يصرخون ثانية:

– صاروخ قادم!

أي صاروخ يتحدثون عنه أولئك الجُهَّال؛ إنها الإشارة التي ستطمئن قلبي بأن اللعنة قادمة لتمزق أعدائنا! هاهي الإشارة تكبر كلما اقتربت، وها أنذا أفتح ذراعاي، وأنظر إليها، أقول:

– سبحان الله! إن الإشارة الربانية المضيئة ستنزل وسط القافلة بالضبط!

أغمض عيناي؛ أشعر بحرارة تقترب، أَحُسُ بالسماء قد سقطت فوق رأسي كسفاً، أَشْعُرُ بالأرض تتزلزل تحت قدماي، تصرخ روحي بصوت مكتوم:

– لقد نجَوتُ!

كائن لا يَحتَمِل ثِقَله

– صابر... أريدك أن تُطلِّقني؟!

لم أنتبه لطلبها أول الأمر، جالِسًا وواضِعًا حاسوبي المحمول فوق فخذيّ الممدَّدتين فوق السرير، مرتديًا منامتي، ومركِّزًا في الشاسة، ولفافة التبغ المُشتعلة بيدي تُغادرها موجات الدُخان الشبحيّة...

– أريد أن أُطلَّق ياصابر؟

انتبهتُ بكل مداركي: «ماذا؟» سألتها! تجلس هي على جانب السرير بقميص نومها الطويل؛ تُدير وجهها بعيدًا عنِّي: «كما سمعت!» قالت باقتضاب، فسألتها مُتلعثمًا: «لماذا ياريم؟» انتابتها لحظات صمت!

– لا أدري، ولكني مللتُ الحياة بهذا البيت؛ من داخلي ضَجرة! لا أريد أن أكمل معك! كل مابك يدفعني للهروب منك؛ ابتساماتك، قبلاتك، أحضانك، صوتك، حتى أنفاسك صارت تُزاحمني شهيقي وزفيري؛ تخنقني! كنتُ أحبك قبل الزواج، وفي أوله، ولكن الآن وبعد مرور عامين، وإنجاب "حمادة"؛ أصبحتُ عاجزة عن زجر قلبي، عقلي، عن زجر كلي الذي يهفوا إلى الرحيل... طلِّقني الآن؟

مُنصتًا لها غير قادر على تطويع مداركي لتصدِّق أن هناك سببًا لتغيُّرها هذا:

– اعطني سببًا واحدًا يحل لك الفراق؟

نَظرتْ في وجهي الذابل بوجل، ووجها أحمر كثمرة فراولة ناضجة، طأطأت رأسها؛ هربت من نظراتي البلهة:

– لم أعد أُحبك!

دعستُ ما تبقى من لفافة التبغ في المنفضة جواري وصمتُ، لكن وجهي ويديّ مارسوا كل علامات التعجُب الرياضيّة.

مجنونة هي بالطبع، ولكن ربما كنت أتوقّع طلب كهذا! قبل أن أخطبها؛ كنت أعرف أنها خُطبَتْ أكثر من عشر مرّات ونيف، وجميعهن فشلن! عِلَّتها أنذاك ذات علَّة اليوم: لا تُحبهم، أو لم تعد تحبهم!

"ريم" فتاة دبلوم التجارة، الذي حصلت عليه في خمسة أعوام؛ عام دراسة، يعقبه عام ملل، ثم مواصلة الدراسة، انتظارًا لعام الملل القادم! وهكذا دواليك. حماي "أ: حسين" دار بها على عيادات الأطباء النفسيين، قالوا له: «سمات مزاجية متوارثة؛ يستحيل علاجها!» وحتى المُعالجين الروحانيين والمشايخ، حتى المُشعوذين؛ أن يجد علاجًا لم يجد! ولكن ماذنبي أنا، وما ذنب "حمادة" الصغير!

أمها أخبرتني بذلك، ونصحتني غير مرة؛ حماتي العمة "رِحاب" عكس الحموات جميعهن؛ قالت: «فتاتي رأسها صُلد صلادته قدر هشاشته؛ هوائيّة ملول، لا زمام لعقلها ولا لقلبها؛ تستطيع منه الامساك بتلابيب أي فكرة أو

قرار أو أمنية أو حتى تفاهة! ستملّ منك يومًا ما، وستتحجج بأيما سبب واهٍ لا لتقنعك أنت، بل لتقنع نفسها بقرارها الفُجائي!» ولكني كنتُ أبلهًا مُحب. لم أجد فيّ عزمًا على تركها، وأصررتُ على الزواج بها، رغم الصعاب والعثرات التي تقابلني. تغضب بدون سبب، وأحفى كي أصالحها، تشطح في خِصامها، لِما ترَ من ليونة نواياي...

«ثِّقَل؛ لابد من ثُقْل في الأمر، ولا مانع من بعض الصفعات؟» نصحتني أمها في إحدى نوبات غضب ريم ثم ضحكَتْ: «كثيرًا ما نصحتُ أبيها بفعل ذلك ولكنه يرفض دومًا، فهي ابنتنا الوحيدة؛ لم يتجرّأ يومًا على زجرها أو ضربها!» كنت في بيتهم؛ أحمل هديّة طلبَتْها مني! رواية "ذاكرة الجسد". وأنا أبتاعها من متجر الكتب، لمحتُ رواية لمّا تصفحتها وجدّتها أمتع منها وأدسم: "ثلاثية غرناطة" فأبتعتها لها فغضبت! وأصرَّت على الرواية الأولى، فجلبتها ذلك اليوم، ولم ترضَ مقابلتي؛ فتركتُ الكتاب لحماتي، وقبل أن أرحل؛ سألتها: «ولماذا لم تزجرينها أنت؟» ضحكَتْ العمّة رحاب قائلة: «فعلت لكن أبوها نفّذ النصيحة فيّ أنا!»

وتنفيذًا لنصيحة حماتي؛ جذبني ثِّقَلًا لم أألفه من قبل إلى أعماقه، وسرعان ماملّت من تجاهلي، واستقامت معي، وتزوجنا. مرّ على زواجنا أكثر من عام، وأنجبنا حمادة، وبعده انتشلتني الخِفة بين أنيابها وطفَتْ! عادت بي حيثُ مزاجيتي التي يصعب تغييرها! خِفة في تنفيذ كل أمنيات "أم حمادة" وطلباتها،

وخوف شديد من أن تغضب أو تُعكَّر مِزاجيتها: أما الآن ففي الخفة الفراق، وفي الثِّقَل المجهول!

في ليلة عُرسنا؛ تجلَّتْ بهيّة، حالمة، عاطفيّة. لم تُرهقني كعادة الفتيات ليلة الدخول بهن؛ راحت تُداعبني كطفل صغير! وطوقتني بليونة وكأني زجاج تخشى تحطُّمه، ولمّا ازداد حنينها؛ حطمتني. ولكني بعد ثوان؛ اكتشفتُ أن شظايا زجاجي المُحطّم أسكرتها، فغرقتُ بين موجاتها مُحاولًا التعلق بأي نُهد للنجاة.

– أحبك ياصابر، لا أتخيَّل أي كنه للحياة وأنت لست معي فيها؟ ابتساماتك تشعرني بسذاجتي، قبلاتك تسكرني، أحضانك تبعد بي عن الدنيا وتحط بي في جنة أنا وأنت من نسكنها فقط، صوتك يداعب أوتار قلبي المدوزنة فأكن لحنك الذي لا ينتهي، حتى أنفاسك...

ثم صمتتْ تفكِّر في كلمات تضعها محل النقاط. كلمات تكرَّرت غير مرة بالروايات التي تقرأها، ولكني كنتُ أملك إيمانًا ما بداخلي؛ يلعب دورًا يشبه دور الشهود في المحكمة؛ يقسم لي دومًا أنها صادقة؛ ريم امرأة المُتناقِضات دائمًا صادقة.

في لحظات صعبة كهذه؛ يُصبح الزمن ثقيلًا في الانسراب من وعينا...

– أردتَ ان تتزوّجني فتزوجتك عامين؛ ألا يكفك عامين وأنت تعُبُ من ملذاتي؟ لابد أن تُطلقني، وتبحث عن امرأة غيري؛ امرأة تجيد الخضوع والطاعة للزمن، امرأة لا تملّ أبدًا من خِفّتك المملّة؟

أغلقتُ الحاسوب، تركته فوق السرير، هامّاً بمغادرة غرفة النوم ثقيلة الزمن، كنتُ أريد أن أدخّن لُفافة تبغ بأي طريقة؛ أشعلتُ واحدة، وتركتها جالسة، وخرجتُ إلى الشُرفة. وكما تقف أرواحنا على عتبة الخلود فندرك مرور الزمن؛ وقفتُ على عتبة باب الشرفة لأدرك حجم ما أنا فيه من المِشكلات. من بين دوّامات أدخنة التبغ، ودوّامات أفكاري؛ أرقب بغصّة في القلب احتراق سبع سنوات شقاء كي أبني هذا البيت! سبع سنوات؛ تعادلها دقيقة عند "ريم"! صَدَقَتْ: هي لا تخضع للزمن!

– ماذا قررتْ؟

شق صوتها طريقًا بين أفكاري، وبين أدخنة التبغ، ولكن الخِفة فعلت فعلتها:

– موافق. قلتها ثم استدرت بوجه طفل لم يألف التلوُّن في الوجوه بعد!

ظلّت مُنتصبة أمامي دقيقة، لا تُطرب الآذان بصوتها، وتحوَّل وجهها إلى ثلجي باهت.

– ولكن لي طلب...

اقتربتُ من صمتها، أخذتها من يدها، وتسللتُ بها بين أسلاك الزمن الشائكة صوب غرفة النوم. وهي صامتة صمتُ لا يتوقَّف عن الثرثرة. أقعدتها على السرير، ثم خلعت ثيابي:

– مرة أخيرة قبل الرحيل!

في البدء كانت الكلمة. جادت عيناها بدمعتين فقط؛ لم تجدا يدًا تهدهدهما! كانت مُستسلمة؛ فمزَّقتُ قميصها، وانزلقتُ فوق جسدها كقطرة مطر صيفية، داعبتُ مساماتها المُتفتِّحة، فسرعان ما امتصتني. حامت فراشات الشوق على أغصاننا، فطردناها بتأوهات ورهز لا يصدران سوى عن مراهقين يمارسان الجنس لأول مرة!

عَرَقنا لم يكن برائحة المسك، وفي عُرينا لم نجد أشجارًا نخصف من ورقها لنداري سوءاتنا، بل التحمنا كمادة الوجود الأولى في انتظار لحظة التكوين؛ في انتظار الكلمة. واكتشفتنا أن الوداع كان دافعًا ومحفِّزًا لكل جوارحنا. كانت تنتحب في صمت؛ ربما من اللذة أو من قدسية الوداع، أو من رهبة انتظار "كُنْ"، أو لسبب أجهله! قضينا ساعتين حتى غفونا دون أن نشعر.

– صابر؟

تسلل صوتها لإدراكي رويدًا رويدًا؛ فتحتُ عينًا، وجدتها مُبتسمة، وجهها يشع نورا، فتحتُ عيني الثانية، وبعد ثوانٍ اكتشفتُ أن ضوء الأباجورة هو ذاك من وقع في زاوية رؤيتي لها، ولكن وجهها كان وضاءً بالفعل...

– سأجهِّز الغداء؛ قم وأفق هكذا يا حبيبي، واذهب إلى الولد لأنه استيقظ؟

قالت ياحبيبي! ثم تركتني لتفعل ما رامت فعله! لقد تغيّر رأيها! ذلك اليوم؛ ظللتُ ألاعب حمادة وأداعبه، حتى ينضج الغداء. أمّا طلب ريم الطلاق فلم يتكرر بعدها إلا زهاء خمس أو ست مرات فقط! ولا أدري هل سننجوا في المرّات القادمة أم لا!

حملتُ حمادة ذو العام الواحد فوق كفيّ، ورحتُ أدور به في الغرفة، وهو يضحك عاليًا، ولمّا تعبتُ أنزلته فوق سريرة فتفتَّقَت عنه صرخات مُفزِعه، فسارعتُ بحمله من جديد متوجِّسًا من خِفّته! ومُسترجِعًا كلام الطبيب لحماي: "سِمات مزاجية متوارثة؛ يستحيل علاجها!"

موسم الخطيئة

أقلَعَت أسراب زرازير من بين حقول الأذرة صوبه؛ بيّد أن الشفق الأحمر الذي امتد سماطًا يحجب الشمس عن حقول الأذرة الطويلة؛ لم يكن قد فُرِشَ إلا مذ ما يقارب ربع الساعة.

رُغم الإنهاك الذي يلقي بوباله على جسدها ذو القامة الطويلة المتيبسة؛ لاتزل تتحامل على قدميها الحافيتين في خطوات متئدة صوب الدار، بجلبابها الأسود الفِضفاض، وخِمارها الأسود المُنسدل فوق رأسها؛ ومن فوق الخِمار حاملة فوق رأسها زنبيلًا من سعف مشحون بسنبل الذرة الرفيعة، تمحو ذيول جلبابها الأسود المُضرجة بالطين –من ثِقلها– آثار أقدامها فوق التراب.

حانت التفاتة من عينيها الواسعتين إلى السماء فسالت قطرات عرق من جبينها إلى أسفل، مارة ببشرتها الخمرية اللامِعة بظلال الغروب.

عادت ببصرها إلى الطريق المُنبَطح أمامها تَحِفَهُ الحقول الخضراء من الجانِبين، ومجرى مياه بجانبها تناثرت على حافته بعض شجرات النبق المُصفِرة أوراقها؛ يصاحب خرير مائه الطريق حتى ديار القرية؛ ديارها التي بَدَتْ لها من بعيد كشواهد قبور باهتة في غبشة المساء.

ماذا لو...؟!

سرعان ما بترت "مديحة" تساؤلها في خَجِل؛ كيف لها أن تتجرأ وتسمح لنفسها بمجرد التفكير في طلب "عدنان ولد الشاعر"؟: هذا سَخَف! تتساءل: ما الذي يعجبه فيّ؟

مرّ أسبوعين على لقائهما، ولكنها لا زالت تعيد على نفسها كل ماقيل لها، وكأنه حدث بالأمس!

يقول لي أن عيناي واسعتان وكحيلتان. تُفَكِّر: وأن جسدي جعله مُتيَّم. هذا هراء؛ لم أسمعه من رجل قط! حتى زوجي! إني عود ذرة جاف! قلت له، فقال لي: سأرويكِ، سأجعلك تينعين؛ فقط طاوعيني؟

زوجها "حمَّاد" قصير القامة المُتيِّبس مثلها؛ يبَّسه عمله في الحقول مقابل جُنيهات معدودة لا تُسلِم معدة طفل صغير من الجوع! لولا أن سخَّر الله لهم عطف الجيران وصدقَتهم لماتوا جوعًا: حمَّاد لم يقل لي ذلك من قبل. تُفكِّر: وكيف يقول وكل همِّه الشاغل لقمة وكُسوة لي ولابنتيه! ولكن عدنان؛ ابن النِعمة والعِز، طول بعرض مثل الثور، توفَّرت له اللقمة والكسوة وفاضت على جنبيها؛ من سواه يتفنن في جدل الكلمات، وصقل النظرات من عينيه الكحيلتين؟ ولكن؛ كيف تدب الحياة في عود جاف طاله الموات حتى وإن أغدقت السماء عليه ماؤها!؟ تتساءل مُتعجِّبة!

في موسم قطع سُنبُل الذرة الرفيعة وجمعه؛ تخرج مع نساء القرية العاملات، وجارتها "نعيمة" الثرثارة التي لا تُجيد شيئًا سوى لَوك سيِّر الناس.

قصيرة ممسوحة: لا مُقدِّمة لها ولا مؤخرة! تقول مديحة لنفسها، وهي تسير خلفها في طريقهم إلى الحقول تستمع لها متأففة: هل تعرفين يامديحة حكاية "عالية" بنت عبدالعاطي. ثم تضحك: لقد طلَّقها زوجها بعد أن عرف أنها تُضاجع "عدنان ولد الشاعر"، تقول النسوة أنها أمام ملاحته وفحولته لا تملك إلا أن ترتمي تحت قدميه ل...؛ تعرفين أن أفعالها هذه تدل على أنها ذاقته من قبل!

يهبطن على الحقول التي تم إسقاط عيدانها السامقة على أيدي الرجال، وفَرَشَت الأرض لتجِف بشمس شآبيب الشتاء على مَهَل. مُبكرًا يبدأ العمل، يوُزَّعن كل امرأة إلى سِماط، وبمناجِلهن يبدأن مُقرفصات، وفي نهاية اليوم؛ تحصل كل واحدة منهن على زنبيل مشحون بسنبل الذرة الرفيعة. كانت ماهرة، سبقَت النسوة، ولمَّا اشتدَّت حرارة الشمس؛ روى العَرَق الأجساد، فطفحت بروائح أرض عطشى بلَّلها الندى دون الشبَع.

اختلى بها عدنان. كان يجلس أمام خُص من البوص في بداءة الحقل، يتوارى خلف سحابة دخان رمادية؛ ينتظر فوران كنكة الشاي بين الجمر أمامه، وعيناه تتطلّع من وهلة لأُخرى إليها خلف السراب. ذهب إليها دونًا عن بقيَّة النسوة. فاجأها:

– مديحة؛ جئتكِ بالشاي؟

شدَّت طرف خِمارها لثامًا لتستر ارتعاشات شفتيها، فانقباضات قلبها متوارية. هي خجول، لا تتحمَّل ولم تألف الخُلوة بالرجال، ما بالك بمُغازل يداعب أوتارًا تهتَّكَت من عنفوان الغَفلة والنسيان؟ ما بالك بعدنان الذي تركع له "عالية بنت عبدالعاطي" التي لا تملك مديحة ربع جمالها! تساءلت: أين مايتحدَّث عنه؟ إنه أعمَش؛ لا يفقه في النساء مِثقال ذرة!

– لا تدارين شفتيك يا مَديحة؟

يالكذبك! أرادت أن تصرخ بها في وجهه، لكنها قالت بصوت مُتهدِّج دون النظر إلى عينيه:

– يا أخي عيب؛ إني امرأة متزوجة؟

لماذا لم تقلها له!

– أنا مُتزوِّج أيضًا؛ ولكن عِندي مُشكلة: زوجتي دائمًا ماتشتكِ من فحولتي الزائدة...

يجلس أمامها مُقرفصًا؛ الأكواب في يد، وفي الأخرى كنكة صدئة بالسُخام.

– سأعطيكِ ما تشاءين من مال، سأغمس جسدِك في الحرير، وسألفُ ساعديكِ بأساور من ذهب، وقبل كل ذلك؛ سأشعركِ بلذة لم تعرفينها من قبل مع زوجكِ؟

ارتجف جسدها: بنت عبدالعاطي؛ تعشقه لفحولته، وزوجته تتضايق منها؛ ياللعجب. امتدَّت يدها المُرتعشة لأخذ كوب الشاي الذي صبه توًا، قبضت على الكوب، وقبض على يدها، عاودتها الرجفة، سقط الكوب من يدها، انسكب فسلخ الشاي الساخن يده فصَرَخ. كانت تشيح بجسدها عن وجهه: إنه جاد! ماذا أصابني؟ بالله؛ إن ملمس يده أنعم من يدي! أضاف بنعومة:

– خشونة يدك تعجبني... ورائحة عرقك تسطلني؛ أتخيلك بين ذراعي الآن؛ حيث يختلط عرقنا من شدة الرهز و...

توارى الصوت عن أذنيها، وتحوَّل إلى صور حية، ولُهاث وتأوهات تعثَّرت في مخاضها؛ صور تداخلت في بعضها البعض، لتكمل صورة زوجها المُتيَبِّس مثلها؛ يلهث فوقها مُتعبًا من دقائق الجِماع القليلة! وعدنان "الفحل" يقف عاريًا بجوار حصيرتهما ينتظر دوره مُبتسمًا. أفاقت والتفتت إلى الخلف؛ كن النسوة قد أدركن كنه ما يحدث هناك، وخاصة "نعيمة" الثرثارة؛ تجمَّعن حولها يثرثرن ويتضاحكن. ويلها؛ لن تتناثر على الألسنة قعدتهم هذه فقط؛ بل ستنسج النُسوة قصصًا عنهما وحكايات؛ ستكن هي بطلتها، وربما الصور التي تداركتها توًا يعلمن بها أيضًا، وستتشعَّب الحكايات حتى تصل إلى زوجها: حمَّاد المُتيبس مثلي! ولكن ماذا عساه أن يفعل لي؟

تساءلتْ، فقاطع عدنان أفكارها:

– فكِري جيدًا، سأنتظركِ كل يوم في ذاك الخُص؛ ستجدينني فيه منذ غبشة الفجر؟

نظرت إليه مُتسعة العينين، وجدته قد وقف؛ حانت منها نظرة خاطفة إلى قامته الفارعة أورثتها قشعريرة، فرمقها بنظرة صاحبتها ابتسامة أورثتها الرجفة؛ ابتسامته التي لم ترها فقط بل شعرت بها وقد تغلغلت إلى أعماقها، انزلقت عبر معبر شائك بالعوائق، التي مهَّدَتها بتغلغلها، وداعبت أوتارها المدوزنة، وكأنه غَرَس في عُمقها المُتصحِّر فسيلة خضراء. صحراؤها المنسية؛ لن تعد كذلك بعد الآن.

تركها ذاهِبًا إلى النسوة ينفث على يده المُلتهبة، بعد أن برَد الشاي، واشتعل لهيبها. تخشى أن يراودها ثانية؛ حقيقة أو خيالًا؛ تخشى أن يحاول إسقاط أمطارًا لري فسيلتها الخضراء؛ التي غرسها توًا، ليس بيده؛ بل بكلماته، ونظراته، وابتسامته، وجسده الفارِع. لقد نسي أن يصب لها كوبًا بديلًا من الشاي! ولم تكترث.

"إني عود ذرة جاف! قلت له، فقال لي: سأرويكِ، سأجعلكِ تينعين؛ فقط طاوعيني؟"

دخَلَت القرية؛ والنساء متجمِّعات في حلقات يتسامرن أمام ديارهن. لابد أنهن يلكن سيرتها بألسنتهن الحادة. يرمقنها بنظرات خاطفة تعقبها ضحكات ووشوشات، ثم يطلبن منها مُتهكمات:

– تفضّلي يامديحة؟

وفي حلقة أخرى:

– تعالي لتشربِ الشاي ساخنًا يامديحة؟

– هي لا تشربه ساخنًا حتى لا ينسكب على يدها ويحرقها!

ثم ينفجرن في الضحك، لمَّا لا يجدن منها سوى الصمت. حتى حمَّاد المُتيبس مثلها؛ تغيَّر معها قليلًا، هي تدرك ذلك، في اليوم إياه، وصلت البيت مساءً، وشعرت بأنه عرِف من جارتها "نعيمة" كل ماحدث ومالم يحدث؛ نظراته باتت قليلة الحيلة، عاجزة عن زجرها، ضعيفة مُستسلمة، وصامتة!

تعرج على دُكان القرية الكبير، تشتري صابونة برائحة للاستحمام، وتعد صاحبته "الحاجة فرحانة" بأن تدفع ثمنها في الغد، فتوميء لها موافقة.

تناما الفتاتين، وينام زوجها، وتسهر هي وقرقعة الحطب في الموقد أمامها؛ تغلي الماء، وتُجهِّز العجينة الَّلزِجة في الإناء، والقمر بالأفق يقترب من الاكتمال خلف سحابات مُتناثرة، وعواء الكِلاب ينفجر من فينة لفينة يؤنسها. تحمل الإناءين تِباعًا، وتضعهما بجوار الطِست، وجوار ثياب نومها النظيفة الملوَّنة المُنكفئة على المِعلاق، في الغرفة المُنعزلة بباحة الدار.

تخلع ملابسها في نور القنديل شاردة، تتحسس أجزاء جسدها التي تراها بعين جديدة؛ ربما عين عدنان! ثدياها باتا جذَّابين، وقِدها يقشعِر من لمسة يدها، ورائحة عرقها باتت كالمِسك: ربما هو مُحق، وأنا التي لا أدرك!

بالعجينة الَّزِجة؛ تتخطَّف الشَّعْر من وديان جسدها المنسيَّة، ثم تدعك كامل جسمها بالليفة والصابونة ذات الرائحة جيدًا، وبقِطعة من طوبة آجر ناعمة الحواف؛ تجلي الصدأ عن قدميها وشقوق قدميها. وبعد الانتهاء؛ وفي نور القنديل الواهن فوق المسرج بجوارها؛ تقف بقميص نومها الأبيض القصير لتتزيَّن أمام لوح مرآة لُصق في الحائط بطين. تُكَحِّل العينين الواسعتين، وتُمَشِّط الشعر الهشّ المموج؛ تتحسس بأناملها الخشنة خدها وشفتيها شاردة...

"لا تدارين شفتيك يا مَديحة؟"

تتحرَّك صوب الحصيرة، وزوجها يغط في نوم مُنبجث عنه شخير مرتفع، تمتد يدها لتوقظه مرددة في نفسها: لقد مرّ على آخر مُضاجعة بيننا أسبوعين وأكثر. ولكنها تتراجع! ترتدي جلبابًا أسودًا نظيفًا فوق قميص نومها، وتجلس فوق الحصيرة لاصقة ظهرها إلى الجدار، مدثِّرة نصفها السُفلي بالغِطاء؛ تُفكِّر. لا تدري كم مرّ من الوقت، ولكن صدى آذان الفجر المتسلل من كوة أعلى الجدار، ومن بين فراغات بوص السطح؛ جعلها تنتفض من جلستها مُستيقظة، وتنهض صوب خِمارها؛ تتلفع به، وتتحرَّك صوب باب الدار.

ولمَّا تخرج؛ تتأمل غبشة الفجر بشبق، وتتنهَّد تنهيدة طويلة، تهروِل عقبها إلى خارج القرية. تحس بخرير ماء المِجرى ينعكس ليسير معها في الطريق صوب الحقول، وأشجار النبق الملفوفة بالضباب كفوفًا تُشير لها بأن تهروِل.

راودتها ذات الصور التي تداركتها مع كلام عدنان لها، ولكن هذه المرة؛ كان عدنان يزيح عنها زوجها حمَّاد المتيبِّس مثلها؛ ليحصل على دوره مُبتسِمًا!

ابتسمَت لمَّا تردَّدت برأسها كلمات عدنان ولد الشاعر آنذاك:

"سأنتظركِ كل يوم في ذاك الخُص؛ ستجدينني فيه منذ غبشة الفجر؟"

العائدون ليلًا

وكما حدَث في الشتاء الأول لمَقتل أبي، حينما كان عمري ست سنوات فقط؛ حدث في الشتاء الثاني والثالث وحتى الآن لازال يحدث. لا أدري لِما الشتاء بالذات! ربما لأن أبي قُتِلَ فيه! ربما.

في هزيع الليل الثاني؛ تسكن القرية مثل الموتى في قبورهم، وتهجم سحابات الضباب المُشبّعة بالندى، لتدثر حقول القمح والبرسيم، فتومِض قطرات الندى فوق أوراقهما بضوء القمر الخافت، قبل أن يتلاشى خلف موجات الضباب؛ التي تلتف بدورها حول البيوت الطينية المتناثرة بين الحقول.

من بين البيوت كان دارنا ذو الطابق الواحد يتألق وحيدًا بأطراف القرية: مُنعزلًا عن تبَجُّح العجائز، ونزق الأطفال. هكذا كانت تُردد أمي! أما أبي فيبرر: وبعيدًا عن تلصص الغُرباء.

ولكني كنت غاضبًا من سُكنتنا البعيدة هذه؛ فقد كان يلزمنا أنا وأبي زهاء نصف ساعة هرولة، حتى نصل إلى دكاكين القرية وسوقها، ماريين بطريق ترابي مُتعرِّج؛ ملؤه شجيرات الشوك القصيرة، التي أجد صعوبة في تخليص شوكاتها من ثيابي وقدميّ.

كان أبي –قبل موته– دائم التخَفِّي: يتلثَّم، ولا يتجوَّل بالقرية نهارًا، ويقضي حاجاته ليلًا بصُحبة بندقيته الطويلة طولًا فاقني. ولمّا كنتُ أسأله عن السبب، يقول لي: الشمس تؤذي وجهي. كنتُ أصدِّقه.

يتحرك مِزلاج بابنا الخشبي ببطء، وكأن يدًا خفية تفتحه من الداخل، ثم يُصِرُّ الباب صريرًا خَشنًا ممطوطًا جراء فتحه ببطء، ويدخل هو، ثم يُغلَق الباب من خلفه، وكأنما جُذِبَ بيدِ من الخارج!

وقبل أن تتضح معالم وجهه في مظلَّة نور القنديل المتراخ في باحة الدار _ينطفيء القنديل! ولكنني أراه بوضوح حتى في الظلام! ليلتئذ؛ تساءلتُ مُتعجبًا: ماذا تغيَّر في ملامح أبي بعد موته؟!

تأملته، فوجدتُ عيناه قد تآكلت أجفانها، حتى ظهرتا دائرتا محجريهما العظميتين. المُقل لازالت موجودة، ولكن استحال لون بؤبؤيهما الأسودين إلى أحمر يقطر دمًا! لم يكن هناك أنف؛ وكان محله ثُقبًا مُهشّمًا في الجمجمة، نافذًا في الرأس، إثر اختراقه برصاصة، وقد تلَطَّخت حوافه –من الخلف– بالدماء المُتجَمدة، أما ما تبقَّى من بشرة وجهه صار مُشعًا بزُرقة الموت، ممتلئًا بشقوق غائرة في العظم.

لا أدري لماذا يحتفظ أبي بجلبابه المُخرَّق من أثر نفاذ طلقات الرصاص منه _حتى بعد موته!؟

كان جسده باد أسفل جلبابه جيفة نصف مُتحللة، يتساقط من خلفه دود رمادي غريب، بل أحيانًا يتساقط من فمه ذو الشفة الواحدة السفليّة فقط، أو من ثقبي أذنيه المتآكلتين. وتظهر عشرات الديدان مُتجمِّعة تنغل في صدره الذي خوى من جلده ولحمه ورئتيه وما تبقى إلا القليل، وضلعان مهشَّمان يتعلّقان بعموده الفقري الصديء.

لا يكترث أبي لوجودي ومراقبتي له؛ يقترب من غرفة نومه، وأمي ذات الخمسين عامًا نائمة بداخلها. يخلع جلبابه ويقذفه بعيدًا، ثم يدفع الباب ويدخل، والديدان تتساقط أرضًا من الحُفر الغائرة بجيفته، ثم تتبعه بسرعة غريبة من جديد، ويختفي بالداخل.

لكني أراه حتى من خلف الجدار الطيني. يقترب منها في الظلام، فتئن قليلًا، ثم تتحول إلى البكاء، فيرفع عنها الغِطاء، ثم ثيابها السوداء ليضاجعها؛ تشعر به، وتتفاعل معه رغم أنها لازالت نائمة!

هنا أستحي أن أنظر، فأشيح بوجهي عنهما، وأشعر بأن الديدان التي سقطت منه أرضًا؛ تتسلَّق السرير الطيني، ثم تتسلقهما وتنهَش في لحمهما.

أتربّع فوق المصطبة أمام الغرفة أُفكِر: ماذا ستُنجب حياة؛ ضاجعها الموت غَفلة؟

ينتهي ويخرج، أنهض فألتقطُ جلبابه وأمده إليه في صمت، ينظر إليّ بحنان أبوي أفتقده مذ موته. يضع كفه التي لم يتبقَ منها غير جلد يابس وعُقَل عظام

صدئة فوق رأسي؛ فيشيب شعري من توه، ويتصدَّع وجهي مثل جدار مُتهالك. ثم يرتدي جلبابه ويرحل؛ فأعد لقعدتى وَجِمًا.

تستيقظ أمي حزينة مولولة كعادتها بعد كل زياراته لنا. تتذكّر يوم مقتله، فأشعر بأني أرى ماحدث أمام ناظري: لقد كنتُ موجودًا مع أبي.

كان شتاءً، وقد كنّا عائدين من دكان القرية الكبير، نحمل مؤنًا للبيت في جِوال خيش؛ لم يصطحِب البندقية هذه المرة. آنذاك؛ لم يمهلني أبي سوى دقائق لأسلِّم على أصدقائي؛ قعدتُ معهم فوق المصطبة، كانوا أربعة، لكنّا لم نُطِل قعدتنا هذه، أو نحكي حكايات مُثيرة كالعادة، وسرعان ما جذبني أبي من يدي، فودَّعتهم وأنا أُجرجَر، وهم –الأنذال– يضحكون.

في طريقنا؛ شَعَرنّا بأن أحدًا يتبعنا في الظلام، فسارعنا الخطى، وأدمَت الأشواك سيقاننا. طالت الطريق، والجِوال ثقيل! اِقترَب من خلفنا وقع الأقدام بصحبة همهمة. لم يكن هناك مهرب. يوشوشني أبي:

– إذهب لأمك، وهات منها البندقية وعُد لي ركضًا؟

أسأله هلعًا:

– من هؤلاء يا أبي؟

– إنهم لصوص؛ هيا إذهب ولاتعد إلا بأمك والبندقية قبل أن يقتلونني؟

أتعجَّب من قوله فأسأله:

– ولماذا يقتلونك يا أبي؟

يأخذني من يدي، نختبيء خلف شجيرة شوك، مُنزلين الجِوال أرضًا:

– سأقول لك الحقيقة –ثم يزفَر بضيق– هذا ثأر ياولدي؛ هم عائلة من بلدة في الجنوب، يلاحقونني منذ سنين؛ لقد قتلتُ إبنًا لهم في مُشاجرة وهربتْ.

أقاطعه شاهقًا:

– ألذلك سكنّا في بيت ناءٍ بأطراف القرية، و...

نصْمتُ لحظة، نسمع خلالها فرقعة أجزاء بنادق آلية كثيرة عن كثب. يضع أبي كفه التي ترتعش بشدة فوق كتفي، ويقول بصوت مُتهدِّج:

– إذهب ياولدي واحتضن الحياة؛ أنت مازلت صغيرًا، وربما يكن حظك أفضل مني؟

تدمع عيناي، وتدمع عيناه! لكني لم أشأ الرحيل. لماذا يموت لوحده! وكيف أحتضن الحياة وأنا لا أشعر بها إلا معه وبصحبة أمي؟ يوقظني بلكمة من قبضته؛ آمرًا إياي:

– اهرب الآن؟

اشيح عنه بجسدي، وأركض صوب البيت. ينطلق الرصاص بغزارة تفزعني! استديرُ صارخًا؛ فأجد أبي غارقًا في بِركة دماء، ويتحلقه رهط من الرجال ملثمين، ممسكين ببنادقهم الآلية، يقتربون مني في صمت حذِر!

في ذاك الشتاء؛ عدتُ لأمي كي أنبهها؛ وقفتُ أمامها أبكي وأصرخ: لقد قُتل أبي! لكنها لم تراني، اقتربتُ منها، حاولتُ لمسها؛ لم أنجح؛ كل شتاء آتي إلى بيتنا لأنبهها وأفشل!

كثيرًا ما أتخيّل نفسي عند الدكّان الكبير، مُتمنيًا أن نقعد في حلقة كعادتنا، ويحكي كل واحد من أصدقائي القدامى حكاية مُثيرة، وأنا سأحكي حكايتي، وحتمًا ستكن الفائزة. سيشترون لي حلوى "الملبن" على نفقتهم.

ولكن ما يحيِّرني حقًا ويقلقني: كيف سأتجسَّد؟ وإن نجحتْ؛ فهل سيخافون مني إذا تجسَّدتُ لهم في هيئتي قبل مقتلي؛ إثر مقتل أبي بالرصاص، على أيدي الملثمين ليلتئذ؟ أم بعده؛ فبموتي قد تغيَّرتْ ملامحي كثيرًا!

زمهرير

ليلاً؛ ركض إلى ركن بالمحطة يرتجف هرباً من البرد القارس.

بين عامودين؛ قعد القرفصاء، شدَّ على جسده الهزيل أسماله البالية.

المحطة خاوية لا حياة فيها. يشتعل البرق من فينة لأخرى فتلمع غير بعيد عنه القضبان الحديدية، والرعد يثير الرُعب في أعماق قلبه، والأمطار تهطل مُفرقعة فوق الرصيف المُترب، وتتطاير قطرات الماء صوبه حيث ينزوي فتُبلل ثيابه.

عواء كلاب متقطِّع ينطلق من خلف سور المحطة بالجانب الآخر أمامه، وشجرة نبق كبيرة تلمع أوراقها المُبللة من أعلى السور، أسفل ضوء عامود الإنارة، ورائحة الحشائش تعبُق بالمكان مُنبعثة من الحقول حول المحطة.

بعد هبوط حدة المطر، وشحوب البرق، وخفوت هزيم الرعد؛ على فُتات الضوء الواهن القادم من عامود الإنارة هناك؛ بدا الجالس طفلاً في العاشرة من عُمره، هزيل الجسم، رث الثياب؛ تصطك أسنانه بقوة من البرد، وتنتاب جسده رجفات متقطِّعة؛ يغمغم بأنين مُتأملًا قرقعة حبيبات المطر أمامه.

أول قطار سيمر بعد ساعة؛ هو لا ينتظره، فالقطارات لا تتوقف أبداً في هذه المحطة، فقد هُمِّشَت منذ خمس سنوات، منذ حادثة الثأر الشهيرة التي قُتل فيها العشرات؛ سالت دماؤهم على ذلك الرصيف أمامه، وبين القُضبان، وتم إغلاق بوابتها الكبيرة، ولحامها بالحديد، ولكنه دائماً ما يجد منفذاً ليدخل كلما شاء أن يدخل.

مزلقان يقع بالقرب من المحطة؛ يلجه ليلاً ويمشي بين القضبان خبباً، أو بجانبها حتى يدخل المحطة، ويبتسم ابتسامة خبيثة؛ فرحاً بأنه تغلب على غلق الشرطة للبوابة.

هو يرى أنه أذكى منهم؛ أذكى من الشرطة كُلها، أذكى من كل الضُباط، وأذكى من العساكر أيضاً بكل مُسدساتهم وبندقياتهم الآلية.

لا يأبه لكلام الناس والأطفال: "المحطة مسكونة بالجن والعفاريت."

لا يخاف مِنهم ولا يراهم؛ بل يتمنى أن يراهم ليبحث بينهم عنه؛ ما دام القتلى يظهرون عفاريتاً فهو يُريد أن يرى عفريته ولو مرة واحدة؛ فقد توَّحشه كثيراً، بل إنه يأتي إلى المحطة خصوصاً طمعاً في رؤيته، ولكنه لا يراه!

يقولون أنه كان طويل القامة، وعريض الصدر، ذا هيبة ووقار؛ هو يعرف ذلك، ويعرف أنه كان وسيماً؛ يُشبه أولاد الأعيان، يُشبه العُمَد، يشبه المُتعلمين، بيد أنه عامل قصعة (قرَوَنْجي) بمِصر لا أكثر.

يتذكره؛ كان عُمره خمس سنوات آنذاك، كان يُحبه، ومتعلّق به تعلُّقًا عجيباً، ولِمَ لا فهو ابنه الوحيد. كان أبوه ذو الأربعين عاماً لا يلوي على مكان، سواء زيارة لأصدقائه، أو صلوات بالمسجد؛ إلا ويده على يده؛ يحمله على كتفيه، يضُمُّه إلى صدره، يمسكه من يده ويمشيان بجوار بعضهما البعض ببطء سلحفاة، وعند العودة؛ يعرج به إلى دكان بالقرب من المحطة، ويشتري له مايشتهيه من مقرمشات وحلوى.

وأحياناً يدخل به إلى المحطة؛ يُريه القطار، ولمَّا يسمع الابن بوق القطار المُزعج يصرخ ويحاول التفلُّت منه والهرب، وتسيل دموعه رُعباً، ولكن أباه لا يتركه حتى تتوقَّف الأبواق، ويظل يضحك على خوفه، ولمَّا تتوقَّف ولمَّا يتأمل ضحكة أبيه الصافية؛ يضحك وخديه مُخضَّلين بالدموع، ثم يحتضن أبيه ويُغمض عيناه ويشعر بالدفء.

وبالمساء؛ يعودا إلى الدار، ولمَّا يصلا يكن قد نام بحضن أبيه؛ حينئذ تحمله أمه وتُسَمِّي عليه، وتُريحه بفراشه، وتظل تدعوا الله أن يُبارك لها فيهما.

وإن كان مايزل مستيقظًا؛ يتحلَّقون المجمر الطيني في باحة الدار، يشعلون به الحطب والجلة، ويدفنون بقلبه كنكة الشاي، ومن فوق الحُصُر؛ ينعمون بالدفء. ويظل الابن مراقبًا الكنكة بانتظار فورانها، وتنعكس ألسنة النار بحدقتيه. وما أن تنتهي أمه من تلقيم الأكواب، إلا وتجد جفنيه جعلا حدقتاه تكفان عن المراقبة لينم.

بالنهار؛ كان يلعب مع أقرنائه، واقترحوا عليه أن يذهبوا إلى غيطان النخيل، ليأكلوا الرُّطَب الأصفر والأحمر والأخضر، والتَمعَتْ في رأسه الألوان؛ فصاحبهم إلى هناك، دون إخطار أبوه!

وبعدما وصلوا؛ لم يجدوا رطباً متساقطاً، واخترقت شوكة نخل قدمه، فسقط أرضاً وانفجر بالصراخ، فتركه الأطفال وفروا مذعورين، ووجد نفسه وحيداً بين النخلات السامقات. وفجأة؛ برز أبيه من بين الحقول لاهثاً، ولمَّا رأى دمائه تسيل، وصراخه لا يتوقف؛ أدمعت عيناه، وقال بصوت خفيض:

– لو قلت لي أنك تشتهيه لأتيتك به دون أن تُجرح!

اقتلع الشوكة من قدمه، وراح يتأمل جرحه، وسقطت دمعاته على الجرح، فشعر الإبن بأن آلامه توقفت، وبرأ جرحه، وكأن دمعات أبيه كانت الترياق.

وقتذاك؛ صَمَتَ، أشار إلى النخلة العالية ذات الرطب الأحمر؛ فهِم الأب، تسلق النخلة، ولمّا وصل إلى عراجينها أخذ يحلبها بيد، فيتساقط الرطب بكثرة، وباليد الأخرى تشبث بالجريد.

فنهض الابن فرحاً ومُطلقاً العنان لضحكاته، غير مُكترث لجرحه، وهرع صوب الرطب، وأخذ يلتقطه ويعب منه بحجر جلبابه، وسمع صوت أبيه ساقطاً عليه من أعلى صائحاً:

– أتُحب أبيك؟

- أُحبك أبي؟

- هل ستخرِج ثانية دون أن تُخبرني؟

- لا لن أخرِج إلا معك! وعاد لضحكاته من جديد.

أما ذلك اليوم الشؤم؛ فقد انتهت أجازة أبيه، وجاء ميعاد عودته إلى عمله في مصر، جهَّزت الأم الحقائب، حملها، استوقفه الابن فأنزلها، سلم عليه، فبكى وتشبث به مُلِحًا:

- خُذني معك إلى مِصر!

- في المرة القادمة إن شاء الله؟

زاد بكائه، وعلا صياحه:

- لا؛ كل مرة تقول سآخذك في المرة القادمة، ولا يحدث شيئاً!

تدخَّلتْ أمه قائلة:

- أتترك أمك لوحدها يا حبيب أمك؟

نظر لها قائلاً:

- منذ وُلدتُ وأنا أعيش معك لا أفارقنك؛ أريد أن أذهب مع أبي مرة؟ -ثم نظر لأبيه باكياً- خذني معك هذه المرة، لن أدعَك تذهب وتتركني أبداً؟

تصبب العرق من جبين أبيه؛ هو لايشأ أن يُغضبه، يُحبه ولا يريد له البُكاء، يتعذب إن رآه يبكي، لكن كيف يُرضيه؟ أيأخذه معه وهو لا يتجاوز الخمس سنوات؟ أيأخذه معه ليرى أبيه وهو يرزح تحت القصعة الملأى بالخرسانة، ويجري على السقَّالة لاهثاً وعرقه يسيل من سائر مسامات جسده، ومُقاول الأنفار يُصيح به آمراً ألا يبطيء؟ أم يأخذه معه كي لا يأكلا سوى الفول والباذنجان والعدس؟ أم يُسكنه معه بتلك العُشس الخشبية التي لا تُدفيء في برد ولا تُرطِّب في صيف؛ التى يسكنها العمال حيث لا ماء، لا كهرباء، لا دورات مياه إلا على بعد مسافة أميال!

أمَا أنه يتحمَّل كل ذلك من أجله ومن أجل أمه؟ سيبكي قليلاً ثم يتوقف؛ لابد أنه سيتوقف، فلا أحد يبكي طوال عمره أبداً؛ فالدموع مثلها مثل أعمار البشر؛ دائماً يأتي لها ميعاد تنضب فيه وتتوقف، وتجف المُقل.

تكدَّرت ملامح أُمه الشاحبة، وانزوتْ في ركن قصي فوق الحصيرة تبكي؛ تارة على بكاء ولدها، وتارة على فراق زوجها.

ستة أشهر سيغيبها، فلتتحمل كما تتحمل كل مرة، ماذا سيحدث في الدُنيا؟ لا شيء، ولكن هذه المرة قلبها ينتفض كطائر مُبلل بجناح مكسور أسفل سماء مُمطرة؛ حيث لا مهرب له من الرجفة والعجز؛ كما لا مهرب لقلبها من الانتفاض سوى التوقف عن الخفقان، أو أن يظل زوجها بجوارها، لا يُغادرها. تبات الليالي قارسة البرودة مُنكمشة في فرشتها؛ لا تتذكر أنها نظرت بالمرآة مرة في غيابه، بل أنها لا تتذكر شكلها آنذاك؛ تغار من النساء جاراتها

وتغبطهن؛ مُعظمهن لا يُغادرهن أزواجهن؛ يتنمصن كل خميس، ويُزلن الشعر عن أجسادهن، ويغتسلن، ومن ثم يضعن الكُحل؛ فتشرق وجوههن، ويرتدين ثياب النوم المُلوّنة القصيرة، وفي الصباح يتبارين في سكب طسوت ماء الاستحمام المعكر بالصابون.

وهي مُنكمشة في فرشتها؛ تشعر بأنها معهم في غُرف نومهم؛ تُراقبهم، وتتسمع أغنوجاتهم، بل تُحصي عليهم ضجعاتهم. فليسافر الآن، ولتؤوب إلى اِنكماشها ومراقبتها لجاراتها، ولتنتظر الأجازة القادمة، كما انتظرت تلك الأجازة، والأيام دائماً تمر، التعوُّد حفي بتخفيف آلامِها.

ظل الابن يبكي، والأب لا يدري سبباً لدموعه هو أيضاً التي راحت تهطل في صمت؛ لماذا تُقلَّب عليه المواجع؟ لماذا يُسترجع شريط حياته الآن؟

حُزن مجهول ران على الجميع، حُزن بثه القدَر بقلوبهم، حُزن على فُقدان ربما تشعر باقترابه القلوب وتخشاه، لكن كنهه عن العقول يظل مُطلسم؛ لابد للأب أن يغادرهم لينتهي كل ذلك، وحتماً ستجف المُقل.

ترك ابنه يبكي؛ غادر البيت، ولمّا وصل إلى المحطة؛ وقف بانتظار القطار الذي كان على وشك الوصول. من حوله رجال كثيرون مُسافرون؛ واقفون يتلَفَّتون من حولهم، ينظرون من فينة لأُخرى صوب بوابة دخول المحطة قلقين، وكأنهم يخشون قدوم خطر ما.

انساب القلق من بينهم، ليلج صدره، وأصبح يتلَفَّت مثلهم صوب البوابة؛ يخشى أن يلحقه ابنه ويتشبَّث به ويُصر على ملازمته.

فجأة؛ دخل رهط رجال مُسرعون، بدوا مُلثَّمين وبأيديهم بنادقهم الآلية.

بمجرد أن دخلوا؛ ذُهل المُسافرون القلقين، وأُبرزت الأسلحة من الحقائب والثياب، وبدأ تبادل إطلاق نار، وحمي الوطيس، وعلا الصراخ، وسادت البلبلة والضجة. وبعد دقائق؛ توقف كل شيء وساد الهدوء، وسالت الدماء، وتطايرت الأرواح صوب السماء، ومن بينهم؛ كانت روح الأب تبتسم مُحلقة لأعلى.

وبعد لحظات؛ دخل الابن إلى المحطة دامع العينين، باكياً شاكياً مُغمغماً؛ باحثاً عن أبيه. لقد تفلَّت من أُمه، وقصد المحطة ركضاً، وراحت أمه تلحق به مُلملمة في ذيول ثيابها، زاعقة ومُحذرة له من التمادي في الخُطى صوب المحطة، ولكن دونما فائدة.

هاله الهدوء، وهالته جُثث البشر الغارقة في برك الدماء؛ شهق، بكى، راح يصرخ بأعلى صوته مفزوعاً، لمح جثة أبيه فصمت! ركض صوبها؛ وجده غارقاً في دمائه، وثقوب جسده كثقوب الغُربال؛ سقط بجواره، راح يتحسس جسده بكفيه الصغيرتين جاحظ العينين، مُتسارع الشهيق والزفير، هاطلة دموعه كصنبوري مياه المُبرد المعطوب بالمحطة.

تأمل وجه أبيه فوجده مفتوح العينين مُبتسماً، ذات الابتسامة الصافية الرائقة التي أحبها فيه، والتي ما إن رآها حتى لو كان يبكي بحُرقة إلا وأثارت فيه الضحك والسعادة والإحساس بالأمان؛ لذا ضحك، وظل يضحك، حتى سمع بوق القطار المُزعج يقترب؛ لم يبكِ خوفاً منه، لم يضع اصبعيه بأذنيه، ولكنه راح يقبّل أباه، ويحضنه بلهفة العائد من السَفَر.

توقف القطار، وراح الركاب ينزلون إلى الرصيف وسيماهم مُكدّرة. وبدأت الشرطة في ولوج المحطة، وضجت الدنيا من حوله. وفجأة؛ وجد شُرطياً يخلعه من حُضن أبيه خلعاً. لم يكن يعلم آنذاك أنه الحُضن الأخير، أو أنه لن يراه ثانية، لم يكن يعلم أن مثل هذه اللحظة تُسمى: وداع. توقف عن الضحك، ولاذ بصمت حجري، وشعر بأن كل الأشياء من حوله أصبحت صورها مُشوشة؛ لا يبين فيها أحد؛ اختلطت الأشكال بالألوان، والأصوات بالهدوء.

– ميت يا أفندم!

قالها الشُرطي الذي حمله بعد القاء نظرة على أبيه إلى ضابط خلفه.

وقتئذ؛ لم يكن يصدِّق حقيقة وجود الموت للبشر! ولماذا نولد مادامت نهايتنا موت! ولماذا تسيل دمائنا مثلما تسيل دماء الدجاجة عند ذبحها: أنحن دجاج أيضاً يُمكن ذبحنا وإهراق دمائنا لنموت بسهولة كذلك؟

كانت صرخة أمه المكتومة آخر صوت استطاع أن يتعرف عليه من بين المزيج المُبهم من حوله، شعر بأنها خارجة من جوف الأرض؛ لها أذرع كثيرة تتشعب لتلتف حول كل المحسوسات من حوله، ثم أُغلقت عيناه رغماً عنه.

***

عندما توقَّفَتْ الأمطار عن المحطة؛ نهض من موضعه، دلف صوب المكان الذي قُتل فيه أبيه بتثاقل، وقف فوق آثار الدماء، نظر إلى أسفل مُرتعشاً، زادت رجفاته، نزل على ركبتيه؛ تحسس آثار الدماء أسفل طبقة مياه الأمطار الراكدة، راح يدعكها بكفيه، تلوثت المياه بآثار الدماء القديمة والتراب، توقف عن الدعك؛ عَنَّت له فكرة ما.

وقف؛ التفت إلى كل الاتجاهات يتفحصها؛ لم يجد أحداً، نادى بصوت خفيض:

– أبي؟

لم يُجبه سوى الصمت، نادى مرة أُخرى:

– أبي؟

قطب وجهه، قعد محله مُتربعاً، وأخذ يتكلم بشرود:

– أريد أن أُخبرك عن سراً يا أبي؛ لقد تزوجت أمي رجلاً غيرك بدون أن تشاورك، وحتى أنا لم تشاورني، ولو شاورتني لَمَا وافقت؛ لقد أتت به إلى

دارنا ويعيش بها، بل لا يتركها أبداً؛ لا يسافر إلى مصر ليعمل مثلك، يقولون أن لديه قطعة أرض يؤجرها ودكان، وأمي دائماً تضع الكُحل، وترتدي الثياب الملونة، وبالليل أسمع ضحكاتها فأضحك، وبعد لحظات أسمع آهاتها فأبكي؛ ولكني فجأة أجدها تعود لضحكاتها مرة أُخرى؛ فأحتار وأتذكرك يا أبتي وأبكي. لقد جُنَّتْ أمي منذ زواجها بهذا الرجل، هذا الرجل ساحر؛ لقد سحرها، حتى أنا لم تعد تُحبني مثل زمان، حتى هذا الساحر لا يضحك في وجهي، ولا يأخذني إلى الدكان، ولا يربِّت على ظهري إن وجدني أبكي؛ هو ليس مثلك.

تلفَّت يمنة ويسرة في غيرما اكتراث، ثم أضاف:

– لقد أنجبت أمي ولدين، تقول لي أنهم أخوتي، ولكني لا أشعر بأنهم أخوتي؛ لأنك لم تقل لي أنهم أخوتي، لذا لن أصدق أنهم أخوتي أبداً.

صمت قليلًا ثم استدرك قائلًا:

– هل تصدق يا أبي؛ أمي عندما تجد واحداً من ولديها الصغيرين يصرخ، تجري عليه مُتلهفة، وأنا حينما أبكي، تضربني على ظهري وتقول لي: «دعك من أمور الغيرة، فأنت لم تعد صغيراً؟» ولكني لازلتُ صغيراً يا أبي؛ أنت تعلم أني لازلتُ صغيراً.

صمت لحظات كانت كافية لتقطر دمعاته، ثم أردف بصوت متهدج:

– أفتقدك يا أبي أريد أن أراك؟ أريد أن آتي إليك حيث أنت! لقد ضقتُ ذرعاً بزوجِ أُمي وبأمي الأخرى –ثم مستدركًا– أتعرف يا أبي؛ لقد قال لي زوجِ أمي مرة حينما رآني أبكي وأناديك: "إن أردت رؤية أبيك، اذهب إليه؟"

فقلت له:

«كيف» قال:

«مُتْ وأنت تراه» ثم ظل يضحك ضحكات أخافتني.

انبلج ضوء قطار قادم من بعيد؛ توقف الابن عن الكلام؛ راح يتأمله شارداً، اقترب منه أكثر؛ بدا أنه قادماً على القضبان المُلاصقة لإفريز المحطة؛ وقف الابن على حافة الإفريز مُبتسماً، ثم قفز إلى أسفل.

وقف بين القضيبين أمام القطار، راح يتأمل ضوءه الذي يشتد شيئاً فشيئاً، وأبواقه المُزعجة التي تعلوا رويداً رويداً، والأرض التي تزداد اهتزازاً أسفل قدميه. كان يُفكر في أن أباه: سيفرح بذهابه إليه كثيراً! لقد افتقد ضحكته الصافية! مؤكد أنه سيحتضن أبيه أخيراً ويُغمض عيناه ويشعر بدفء أشد من دفء المِجْمَر المُشتعل في زَّمهرير الشتاء، حينما كانوا يتحلقونه جميعاً في باحة الدار.

الساخِطان

لا أدري لماذا خُلِقنا؟

ولماذا تشرقُ الشمس من جديد؟

كل يوم تُشرق؛ لا تكَل ولاتمَل، لا تأخذ عطلة يوماً، وأستيقظُ أنا رغماً عني مثل كل صباح!

ما عدتُ أطيقها؛ أكرهها، أكره شروقها، أريد أن أنم، النوم لذيذ، أما الاستيقاظ مبكراً فهو سوء العذاب!

لماذا أستيقظ؟ ألأشقى وأُرهق نفسي وجسمي، وأشتمُ رائحة العرق والقمامة طوال النهار؟! لماذا أستيقظُ؟ ألينظرون لي الناس من نوافذ سياراتهم بقرف واشمئزاز؟ أم لأتسامر مع حماري الهزيل الضامر الذي لا يفهمني أبداً ويستمع إليَّ بعينين مفنجلتين في بله، وما أن أُنهي كلامي حتى يشيح برأسه، ولا أعلم أيسخر من كلامي، أم ينشُّ الذباب الذي تجمع حول عينيه!؟

ذات مرة خرجتُ من الكوخ الخشبي الذي أسكن فيه بعيداً عن المدينة، بالقرب من مقلب قمامة كبير؛ يكفيني وجوده بالقرب مني مؤونة الطعام والثياب.

كنت قد أنشأتُ للحمار حظيرة صغيرة خلف كوخي، وما هي إلا سور خشبي قصير، وبداخلها مربط، وطوَّالة اقتطعتها من برميل صاج، لأضع له بها التُبن، أو البرسيم، أو أي علف أُحضره له من المدينة. كان سقفها مهرأ من ألواح وقماش يرتكز على أربعة أعمدة خشبية هشة، لا يمنع لفحات الشمس من سلخ جلده، وكانت العربة "الكارو" متروكة غير بعيد بجوار جراكن المياه البلاستيكية، وأكوام الخردة.

سكبتُ له من الجوال بعض من التبن في الطوَّالة، وألقيت بالجوال خارجاً، وهممتُ أن أقعد بجواره، فوجدتُ روثه في كل مكان، حددتُ مساحة تكفي لقعدتي، وكانت لا تتعدى النصف متراً، فأنا هزيل الجسم لا أحتاج إلى أكثر من ذلك، وأزحت الروث بيدي. ثم قعدتُ أتأمله وهو يأكل بنهم وقد أسندتُ ظهري إلى السور الخشبي القصير، وراح يرمقني بنظرة لا معة من فينة لأخرى أثناء جرشه للتبن.

لا أدري ما معناها، ربما كان يود أن يدعوني لأشاركه في أكل التبن، ليثبت لي أنه ليس ببخيل أبدًا، ولكنه في ذات الوقت خائف لإن فعلها وأكلتُ معه ينتهي التبن قبل أن يشبع هو!

هممتُ أن أسبه، فقلت له:

– يا حمار!

ثم ضحكتُ، لأنها بالنسبة له ليست سُبة أو عيب، بل هي عين الحقيقة، ولكني فكرتُ؛ ربما مثله مثل أي إنسان تقول له "يا بني آدم" وأنت تحاوره يغضب، ويعتب عليك قائلاً: «أنا بني آدم؟!» فتقول له: «لا، أنت حمار!» فيسعدُ كثيراً!

أتساءلُ؛ ما الفرق بيني وبين ذلك الحمار؟ لا شيء البتة، يستيقظ مبكراً كما أستيقظ، يأكل كما آكل، يتبرز كما أتبرز، يضاجع كل مدة أتان، ناهيك عن طول ذَكَره الذي لا يمتلكه أضخم رجل على وجه الأرض، وأنا لا أجد حتى ماعزة تؤنسني، ويذهب معي أينما أذهبُ، ويعمل معي فيما أعمل؛ إذاً أين الفرق؟

يقولون أن الإنسان حباه الله عقلًا، والحمار لا يمتلك عقلًا، وبماذا أفادني أنا الإنسان ذاك العقل الذي يتحدثون عنه، وأنا والحمار في مكان واحد، وفي عمل واحد، بل في حظيرة واحدة!

ضربتُ يدي بجيب بنطالي القماش المهلهل، أخرجت عُلبة سجائر، وقداحة، ودفتراً من ورق البفرة، وقطعة بنية صغيرة. نظر لي الحمار باستغراب، وركز بصره على ما بيدي، ضحكتُ، قلتُ له:

– هذه القطعة البنية هي التي ستجعلني أنسى استيقاظي المبكر، وأنسى تجاهلك لكلامي، وأنسى كذبة العقل!

أشاح بوجهه، تجاهلني، عاد لدفن رأسه بالطوُّالة وللجرش!

فركتُ الحشيشة الجديدة على سوق المُخدرات في بلادنا؛ كنتُ سأُجربها لأول مرة في ذلك اليوم؛ سخّنتها، ثم فركتها وحشوت خمسة سجائر، وأشعلتُ أول واحدة، وبعد دقائق أنهيتها، وأشعلتُ الثانية فاحمرَّت عيناي، وثَقُلَ رأسي، وشعرتُ بأني خفيف لدرجة أني تخيلتُ وقتها لإن هبت ريح شديدة لحملتي كالريشة وقذفتني بعيداً، أما رأسي فسيظل مكانه، بانتظار عودة جسدي!

السيجارة الثانية؛ قاربتْ على الانتهاء، وفجأة؛ اقترب مني الحمار، نظف الأرض بجانبي مستخدماً حوافره وذيله، ثم قعد على مؤخرته مثلما أقعد، وأنا أُشاهد كل هذا صامتاً، ناقِلًا بصري مابين السيجارة والحمار الذي بدأ بفعل أشياء غريبة؛ خمنت لحظتها؛ أنه لابد قد استنشق كمية مناسبة من الدخان وانسطل وفعل ما فعله!

نظر إليَّ الحمار شزراً ثم سمعتُ ضحكاً، ومد رأسه صوب السيجارة، ثم سمعتُ صوتاً:

– اِكفني مؤونة إنهائها أرجوك؟

هل قالها الحمار؟ تساءلتُ، ركزتُ على فمه، كررها ثانية، لم أُعقب، أخرجتها من فمي، وضعتها بفمه مشدوهاً، سحب الأنفاس خلفها الأنفاس، والغريبة لم يسعل! وتطايرت سحابات الدخان من حولنا، وكلانا صامتين، أبلهين.

أنهى السيجارة، أمرني:

– اِشعل لنا أخرى أرجوك؟

لم أُعقب أيضاً، أشعلتها، أخذت أنفاساً قليلة، ثم وضعتها بين شفتيه الغليظتين؛ فسَحب أنفاساً شديدة، كاد أن ينهي السيجارة فيها، والدخان يخرج من منخريه الذين بديا وقتها كمدخنتي عربة بطاطا!

– على مهلك يا حمار؟

صحتُ به حانقاً، مد رأسه غاضباً، أخذتُ السيجارة، وضعتها بفمي، سحبتُ نفساً طويلاً، وأغمضتُ عيناي، وأخرجته بصحبة تنهيدة عميقة.

– أنا حمار؟!

قالها لي، فتحتُ عيناي، نظرتُ إليه، وجدته دامع العينين، تعجبتُ، قلت له:

– لا؛ أنت بني آدم!

تهلل وجهه، قال بصوت متهدج من الحزن: ما الفرق بيني وبينك؟

نظرتُ له متفحصاً، ونظرتُ إلى السيجارة:

– الآن لا يوجد فارق!

قلتها ثم ضحكتُ، حدجني، توقفتُ عن الضحك! قال غاضباً:

– يقولون أن الحمار حباه الله عقلًا، أما الإنسان فلا يملك عقلًا، وبماذا أفادني أنا الحمار ذاك العقل الذي يتحدثون عنه، وأنا والإنسان في مكان واحد، وفي عمل واحد، بل في حظيرة واحدة!

ونظر لي بحزن. وقتذاك؛ عجزتُ أن أُجيبه، وانخرطتُ في ضحك لا إرادي، وأعطيته السجائر ليدخنها لوحده، كنتُ فقط وكلما انتهى من واحدة، أشعلتُ له الأخرى، ثم عدتُ لضحكي وأنا مستلقي على ظهري فوق الروّث.

ومن وقتذاك؛ وكلما شعرتُ بأني مُكتئبًا مثل حالتي الآن؛ جهزتُ العدة، والقطعة البنية، وذهبتُ إلى الحظيرة، ولكن مايدهشني حقاً أنه لا ينضم إليَّ إلا بعدما أن أشعل السيجارة الثانية وأسحبُ منها عدة أنفاس؛ لربما كما خمنتُ سابقاً؛ لابد أنه يستنشق كمية مناسبة من دخان الحشيشة حتى ينسطل ثم يفعل ما يفعله.

مسارب اللاوعي

نداء مؤذن يتسرَّب إلى مسامعي...

"الصلاة خير من النوم!"

ربما كان الفجر... لا؛ هو الفجر!

منذ متى وأنا نائمة؛ هل اليوم هو الجمعة حقًا؟

هل أنا نائمة أم مُستيقظة؟

ثمّة أعمال ثقيلة لابد لي من قضائها باكرًا!

لف أصابع "المحشي"؛ هاك نصف يوم ضائع من أجل نصف ساعة غداء!

مُتكومًا جواري مثل فيل نافق! مُتزملًا بالألحفة كعادته.

دَفعات شخيره طَغَت على صوت المؤذن!

كيف أعالجه من داء الشخير هذا؟

شخير ماذا! حري بي أن أعالجه من السمنة المُتوحشة أولًا.

"طبّاخ المَحشي لايتذوقه" أنا الزوجة النحيفة وهو الزوج السمين! حتى في المُعاشرة؛ ماعليه سوى التمدد على ظهره، وأنا أتكفل بالقيام بما تبقّى من جلسة الجنس الشهريّة!

أحاول الانسلاخ من حالة اللاوعي، طاردة بقايا نوم عالقة بجفنيّ.

تمتد يدي إلى الهاتف الخلوي فوق المنضدة جواري، وكأنها تخترق النيران. أنظرُ إلى شاشته بعد أن أضغط زر الطاقة.

تضيقا حدقتاي من شدة ضوئه، فأغمُض عينيّ من جديد.

لحظات وتتسرب لإدراكي صيحاته:

– الساعة الثامنة يا "مدام"، وأنتِ لم تستيقظي بعد!

هل هي الثامنة بالفعل؟

أضطلعُ بجبل صخري فوق جسدي، أجلس على السرير مُلتقطة أنفاسي!

أصعب لحظات أواجهها في حياتي؛ هي تلك التي مابين الاستيقاظ والنوم! مابين الوعي واللاوعي. ليتني أنَم ولا أصحو أبدًا: ما أجملها ميتة؛ لا ألم فيها!

أشعل الإضاءة، أبحثُ عن الهاتف؛ أجده ينعم بالدفء تحت الألحفة جواري.

اقوم بمنامتي؛ هامّة بالذهاب إلى الحمَّام. ذلك الميعاد اليومي المُقدَّس! للمُقابلة وجهًا لوجه مع... وجهك، وفضلاتك!

ثمّ شعور بالحيوانية في مقابلتك الثانية، وثمّ شعور بالصدمة في الأولى: إنك لازلتُ حيّاً!

في ضوء التلفاز؛ ينطرح زوجي فوق الأريكة بمنامته البيضاء؛ مثل سلاسل جبال جليدية في المساء، يشاهد فيلمًا عربيًا ساخرًا دون ألوان! مُتطايرة ضحكاته الباهتة من حوله.

أتجاهله مُتثائبة، ومواصلة خطواتي الثقيلة صوب الحمّام. أتقابل بوجهي –من جديد– في المرآة. ثم بسبابتي أزيل الرمص من مآق عينيّ مُتجَهِّمة.

قبل الزواج لا يتوقع الرجال بأن المرأة عند استيقاظها تكن أشبه "بمَسخ فرانكنشتين!" ولكن بعد الزواج، وبسبب العادة فقط؛ يتآلف المسخان بعد صدمة اكتشاف التشابه.

أنزل ثيابي، وأقعد لأفرِّغ فضلات أمعائي. لحظات وأشتم الرائحة التي ألفتها، والتي لا أمتلك جرأة القول بأنها "قذرة".

لو لم أُخبر بأن "البشر في الجنة لا يتغوطون" لما صدَّقت بوجود الجنة.

بينما أغسل وجهي، ثم أسناني، تتسرب لمسامعي ضحكات زوجي التي علَت وتيرتها، وصارت مُذيَّلة بشخير عال التردد!

انقضى من عمر زواجنا؛ ست سنوات؛ لم ننجب خلالها سوى طفلة في الخامسة من عمرها. تنم في غرفتها، لا تستيقظ إلا في العاشرة، جراء سهرها أمام التلفاز، لمشاهدة أفلام الرسوم المُتحركة، أو اللعب بدمياتها والتغنِّي برسوماتها، أو آداء واجبات الحضانة: ليتني في مثل سنك حبيبتي، أقلها سأُرحم من طبخة المَحشي هذه!

أتصبب عرقًا وأنا أنتقل من تجهيز الأرز، إلى سلق ورق الكرنب، ثم لفه، وأخيرًا صَفه في الإناء مُتخذًا شكل دوائر مُتداخلة، بعد سكب قليل من الزيت أسفله حتى لا يحترق. وأخيرًا؛ أتركه فوق النار المُشتعلة لينضج.

ثم أجذب كرسيًا خشبيًا إلى المطبخ، وأتهالك فوقه، لأغفو قليلًا جراء الإرهاق!

– الساعة الثامنة يا "مدام"، وأنتِ لم تستيقظي بعد!

تفزعني صرخاته! أنتفضُ مُستيقظة بقسمات وجه أشعر بأنها تبادلت مواضعها خفاءً: العين موضع الفم، والفم موضع الانف! وعبثًا جعلتُ أحرِّك يدي للبحث عن هاتفي، ثوان وأجده مُختبئًا بطيَّات الغطاء جواري! أنظرُ إلى ساعته، أجدها الثامنة ودقيقتين.

أزفر مُتكدِّرة. يصر باب الغرفة؛ أجبر عيناي المزرورتان على اكتشاف الآت!

أجدها صغيرتي بشعرها المنكوش، مثل شبح في مجال ضوء الصالة المُتسلل من فتحة الباب! تبتسم لي قائلة:

– أمي... لقد تأخرنّا على طهي "المحشي"؟ إن أبي يقول لكِ: أن عصافير بطنه تُغرِّد!

أصحح لها مُتهكِّمة:

– تقصدين؛ أغربة بطنه تنعق!

اللحم والمش

واقفاً تحت شجرة نبق عظيمة مورقة، تنتصب على قارعة طريق ترابية صفراء، ومن حولها حقول القمح، الذي كاد أن يلفظ سنبلاته، ناظراً لأعلى الشجرة _ طفل بالسابعة من عمره. يبدو مشعث الشعر، ذا بشرة قمحية، وجسد هزيل، يرتدي جلباباً قصيرًا مهترئًا، لا يبين لونه من الأدران.

– أريدُ بعض من ثمرات نبق، أنا جوعان يا أخي؟

قالها رافعًا يديه إلى أعلى، لامعتان عيناه السوداوين الواسعين تكادا تطفران بدمعهما. نادى تارة أخرى:

– سعد؛ أنت جشع يا أخي، لو أنك تحب النبي اسقط لي أقلها خمس ثمرات، إني أتضور جوعاً يا أخي؟

سمع ضحكة أخيه منزلقة إليه من أعلى الشجرة، فانفجر بالبكاء، وأخذ يَدُور حول نفسه، باحثاً في الأرض بعينيه عن شيء. لحظات ثم التقط حجراً صغيراً، وتعالت شهقاته، وسالا خيطا مخاط من منخريه إلى فمه. وقف بجوار الجذع، رفع بصره لأعلى، وطرح يده بالحجر خلف رأسه، ثم صاح:

– والله لأبطحنك؟

صاح أخيه من أعلى بلهجة ساخرة:

– سعيد... أيها العبيط؛ الشوك أدماني، انتظر حتى أجمع لنا الكثير من الثمر في حجري، ثم أنزل ونأكله سوى؟

– طيب، سأنتظرك فوق المجرى المائي بعدما أغسل وجهي، وإن كنت تكذب عليَّ لأقولن لأمك ولتسلطن عليك "الكلب الجائع" ليأكلن مؤخرتك النتنة.

أسقط سعيد الحجر أرضاً، دلف تجاه مجرى مائي صغير محاذٍ إلى الطريق بالجهة الأخرى ومرتفعاً عنه قليلًا، ومن خلفه غير بعيد شجرة النبق.

غسل وجهه، قعد على حافة المجرى فوق النجيل، كشف عن ساقيه فبدتا متسختان، وقدميه حافيتان متشققتان، وضعهما بالماء وشهق مُبتسماً.

راح يتأمل حقول القمح الخضراء أمامه في تماوجها وتراقصها مع نسمات الهواء، والنخيل السامق المتناثر بين الحقول كنساء طويلات ناكشات شعورهن بين السحاب، ومنبهراً بالزرازير الشاقة السماء في أسراب مكونة أرقام وحروف يجهلها!

لم ينضم إلى المدرسة بعد، حينما سأل أمه عن ميعاد التحاقه بالمدرسة، لمَّا رأى أقرنائه جميعاً يذهبون كل صباح إليها، ويلبسون الجديد، وباتت لدى كل واحد منهم حقيبة بها كتب وكراريس وأقلام وألوان _ ارتسمت على تقاسيمها السمراء ابتسامة زائفة ثم قالت: "سنُلحقك بالمدرسة في العام القادم،

فالأموال التي يُرسلها أبوك لن تكفي تعليمكما أنتما الاثنان معاً، أما العام القادم فسيُزيد أبوك ما يرسله من أموال، وستلتحق بالمدرسة إن شاء الله."

ومرّتا سنتين، ولم يُزد أبيه فيما يُرسله من أموال، ولم ينضم إلى المدرسة، وما يزل يجهل تلك الأرقام والحروف التي تُشكلها أسراب الطيور بالسماء.

فجأة؛ سَقَطَتْ كف سعد أخيه على كتفه، اِنْتَفَضَ من قعدته، اِلتَفَتَ إليه قائلًا:

– أفزعتني يا جحش؟!

قهقه سعد، ثم بصق نواة الثمرة بالمجرىٰ. بدا طفلاً بالعاشرة من عمره، بنفس ملامح أخيه الصغير، ولكن بعينين ماكرتين، مرتدياً جلبابًا قصيرًا مهلهلًا، حافي القدمين، رابطاً حجره حول خصره صانعاً بقجة لتجميع الثمر.

قعد بجوار أخيه واضعاً قدميه بالماء، ثم وضع بقجة حجره بينهما، فظهرتا ساقيه الصدئتين، ولباسه الداخلي المُخرّق. فك عقدة جلبابه ليُخرج الثمر وسعيد مسلطاً بصره إلى حجره بشغف. فتحه، وبدءا يلتقطان الثمر الأصفر والأخضر ويأكلانه بنهم، قال سعد وهو يمضغ:

– سأخبرك سراً، ولكن اِقسم لي أولًا أنك لن تشي بي عند أمك؟

قال سعيد وهو يمضغ:

– والله لن أقول! ولكن خبرني أولًا: أين يختبيء الكلب الجائع الذي تتحدّث عنه القرية، ويخيفوننا به؟

الفهرست

– في كل مرة تقسم ولمَّا نعود إلى الدار وتعطيك أمك بيضةً لتشتر بها الحلوى الطوفي وشطفة السمسمية من الدكان تشي بي!

– اِسمع؛ إن أنت جلبت لي ثمر النبق كل يوم أعدك ألّا أشي بك مجدداً؟

ضحك سعد، ثم قال بخبث:

– لقد لعبتُ مع "فوزية" بنت الجيران بالأمس لعبة جميلة.

قطب سعيد حاجبيه، بصق النواة، قال:

– أنا ألعب معها كثيراً، ما الجديد يا فالح؟

ثم عاد لأكل الثمر، ضحك سعد ضحكة ساخرة، ثم قال مبتسماً:

– أنت تلعب استغماية، كهرباء، مسَّاكة الملك، ثبِت صنم، تلعب لقيفة بالكرة الشراب؛ إنما أنا لَعِبْتُ لعبةً أجمل بكثير؛ أنت صغير لا تعرفها، وغير ذلك أنت لم تُختَّن بعد؛ لذا لن تستطع لعبها.

اِحمَّرَ وجه سعيد، قال بغضب:

– لن أُختَّن أبداً!

– أمي قالت لي لمَّا يرسل أبوك القرشينات من السعودية سنُرسل إلى المُزيِّن وسنُخَتِنُك.

قالها سعد ثم انفجر ضاحكاً، فحدَّجه سعيد ممتعضاً:

– والله لن أُختَّن وسترى، أُمك تمزح؛ فقد سبق وقالت أنها ستُلحِقني بالمدرسة ولم تفعل!

بصق سعد النواة، اقترَب من وجه أخيه، قال هامساً:

– دعهم يختنوك لتلعب تلك اللعبة الجميلة؟

تعجب سعيد، قال بشغف:

– ماهذه اللعبة؟

انتهى الثمر، وقف سعد وعينا سعيد مُعلقتان به، فقام بغسل يديه، ثم اغترَف من الماء غرفة بيديه وشرب، ولمّا انتهى؛ نظر لأخيه مجيبًا عليه بصحبة ابتسامته الماكرة:

– عريس وعروس؟

جحظتا عينا سعيد وشهق شهقة كاد أن يبتلع سعداً فيها وأردف شارداً:

– ياقليل الأدب؟

قهقه سعد، وعاد لقعدته، ثم تذكر شيئاً، فقال مشيحاً بوجهه بعيداً عن سعيد:

– أتعرف؛ لن نأكل المِشُّ اليوم!

قال سعيد متعجباً:

– لا يوجد غير المِشُّ على الغداء والعشاء، أما العصيدة فهي بالصباح، فماذا سنأكل على العشاء الليلة؟ أعصيدة أم أن أمك ستسلق لنا بيضاً رغم أن البيض كل يوم جمعة، أم ماذا؟ حيرتني ياسعد!

قال سعد مبتسماً وهازاً رأسه يمنة ويسرة:

– لحم، أرز، فاصولياء...

شهق سعيد مجدداً، وفغر فاه، نظر له سعد، أتم:

– بتاوّ طري، ورغفان شمسية منتفخة.

خرج سعيد عن صمته، وقف ممتعضاً، تحرك باحثاً عن حجر، أحضره بيده وعاد لقعدته بجوار سعد مقطباً حاجبيه، وقالباً شفتيه، ورافعاً يده بالحجر خلف رأسه. ضحك سعد قائلًا:

– أما عندك صبر يا عبيط، سأقول لك عن كل شيء، لكن طوِّح الحجر بعيداً؟

طوَّحه سائلًا:

– كيف سنأكل اللحم؟ لأني مللتُ أكل دود المش. أمك دائماً تقول لنا: "كلوا الدود قبل أن يأكلكم؟" لا أفهم كيف سيأكلنا؛ هل سنُدفن بعد موتنا في بلّاص مش؟

– يا عبيط لن نُدفن في بلَّاص، البلَّاص صغير الحجم لا يساعنا، سنُدفن في زير ضخم به دود بلا مِش.

اشمأزت تقاسيم سعيد، قال مُتأففاً:

– لا أريد أن أُدفن مع الدود، وسأظل آكل المِش بدوده حتى ينتهي الدود من الدنيا، ولكن قل لي: كيف سنأكل اللحم؟

– سنذهب الليلة إلى عُرس ابن شيخ البلد، وسنغط في الطبيخ غطاً، وسأُعْلِمك في طريق عودتنا: أين يختبيء الكلب الجائع.

ضحك سعيد، حرك قدميه بالماء فرحاً، فتناثرت قطرات الماء، ثم توقف فجأة، وقال بشرود:

– أمك... لابد أن ندخل لعَشاء هذا العُرس أكثر من مرة، لنحتفظ بقطعة لحم لأمك في جيوبنا، ونترجاها أن تدفننا بعد موتنا في زير به لحم، حتى لا يأكلنا الدود؟

ثم صمت لحظات، وفجأة تذكر شيئاً:

– لماذا يغضبون الكبار لمَّا يلعب الصغار لعبة "عريس وعروس" ويفرحون بالكبار إذا ما لعبوها، بل ويجمعون الناس ويطبخون لهم اللحم فرحين بذلك؟

ضحك سعد، وضربه على ظهره صائحًا:

– أسكت يا قليل الأدب.

***

اختبأت الشمس –متألقة– خلف أكمة النخيل خوفًا من الحسد. أتخذ الشفق مكانه مثل حائط صد أمامها، وهدأت القرية. ذهبا الأخوان إلى العرس ركضاً بين حقول القمح والبرسيم، بينما الضباب كان يقطرهما مدثرًا الطرقات والحقول بدخانه الأزرق الباهت، المُشبَّع بقطرات الندى.

كان العُرس مُقام بساحة كبيرة تتعدى الفدان؛ سُرادق كبير، ومعازيم من القرية والقرى المجاورة، مزدانين بجلابيبهم الناصعة، وشيلانهم البيضاء، يقعدون على الدكك، ويُدار عليهم بالشاي، والدخان من قبل أصحاب العرس. والطبَّال بفرقته الضاربة بالطبل والمزمار تُرقِص من لا يعرف الرقص، والسلامات تُرسل عبر اللاقط إلى مُكبرات الصوت على لسان مُغني الفرقة، بأسماء كبار العائلات، فيتردد صداها بأرجاء القرية، وتُبرز بصُحبتها ورقات العشرة والعشرين والخمسين والمائة جنيه.

فيأخذها المُغني، ويشدو بالموّال المطلوب، وينزل الطالب إلى الساحة بعصاه الخيزران ليتمايل مع الدرداب برشاقة.

وغير بعيد يقبع مبنى من الطوب الحجري الأبيض، مسقوف بالبوص، ومن حوله الرجال المُتأنقين، مابين الداخل والخارج منه. والأطفال ذوي الثياب المهلهلة، والأجسام الهزيلة، يتصايحوون في جلبة، ما بين كر وفر صوب الباب.

– لقد دخلت من قبل يا بن الكلب؟!

صرخ بها رجل طويل القامة، ضخم النسيج، يقف أمام باب المنظرة الكبيرة بجلبابه الفضفاض كالعامود، حيث وقت العَشَاء في العرس؛ ينظم دخول المعازيم، ويمنع الأطفال النزقين من الدخول مرات عدة.

– والله لم أدخل بعد صدقني ياعم!

قالها سعيد وهو ينظر إلى أعلى من حيث يسقط إليه الصوت.

ضجر الرجل، زمجر، انحنى، قبض على خصره بكفيه الضخمتين؛ رفعه إلى أعلى، جحظت عينا سعيد لمّا رأى ملامح الرجل: وجه مُفلطح، وانف معقوف، وعينان حمراوان واسعتان. دخل الرجل به إلى المنظرة، أقعده إلى جوار طبلية بالصفوف المتراصة؛ حيث الأطفال سابحون في الأطباق، ثم خرج.

ما إن قعد ونظر جواره، حتى وجد أخيه سعد يضحك ساخراً منه، قال سعيد ضجراً:

– هذه مرَّتك الرابعة، وأنا حاربت كي أدخل مرتي الثانية؛ كيف تفعل ذلك دون أن يلحظك ذكر النخل المنزرع بالخارج؟

حاول سعد الضحك ولكن فمه محشوّ بالطعام، وما إن ابتلع ما بفيه حتى قال:

– كل ياعبيط ولمَّا يُفَرق اللحم خبئ نصيبك بعد أن تلفه بالخبز لأمك؟

مَسَكَ سعيد طبق الملوخية وسكبه في طبق الفاصولياء، حدجه جميع من حول الطبلية من أطفال في مثل سنه؛ لاحظهم، فوضَّح:

– بدلًا من لقمتين تصير لقمةً واحدة، ولانُضيِّع الوقت حتى لا يأتي اللحم فجأة، ويفرقونه ومن ثم يطردوننا جوعى.

اِلتَفَتَ الأطفال إلى بعضهم، ضحكوا ثم واصلوا تناول الطعام بنهم. همس سعد في أذن سعيد:

– إن أردت أن تدخل مرة ثالثة فتحيَّن وقت دخول جماعة من الرجال وانسل من بين جلابيبهم الفضفاضة، واحرص ألّا يلاحظك ذكر النخل المُنزرِع بالخارِج؟

***

قفلا الأخوان عائدين من العُرس، وقد إسودَّ الليل، وانتشرت النجوم بسمائه تلمع، وتناثرت الأصوات بالقرية؛ عواء كلاب، ونقيق ضفادع، وصرير جراد، وسجال الأخوان؛ سلكا طريقاً مظلماً تحيطه النخلات السامقات من الجانبين، وتلفه سحابات الضباب من أمامهم ومن خلفهم.

– كم لديك من قطع اللحم؟

سأل سعد، فأجابه سعيد باقتضاب:

- لديّ قطعتين.

قال سعد متهكمًا:

- أنا لدي ثلاثة قطع؛ حاول أن تحافظ عليهما حتى نمر من جوار الكلب الجائع بأمان؟

فزَع سعيد والتصق سريعاً بأخيه وصار يتلفت حوله كالمجنون، وقال بصوت تهدج رعباً:

- الكلب الجائع! أين هو يا أخي؛ حرام عليك أين هو؟ هل يختبيء في هذا الطريق أمامنا؟

أجابه سعد ساخرًا:

- ليس أمامنا بل على مقربة منّا!

شنق سعيد مرتعدًا:

- إذًا هيا نجري بسرعة وننفذ بلحمنا ولحم أمك؟

وظل يبكي، وفجأة؛ زمجر كلب خلف الضباب أمامهم؛ صمتا، وقفا مبلسين، اخترق الكلب الضباب، قفز صوبهم، أخذ يدور حولهم لاهثاً شاماً ثيابهما، كان كلباً أسود اللون، ضخم الجثة، غليظ الرأس.

اصطكت أسنان سعيد رعباً، ظلا صامتان، اقترب الكلب لاهثًا يشتم جيوبهم حيث قطع اللحم، ولمَّا وجدها، مزق جيب سعيد بأنيابه؛ فبال سعيد على نفسه، ثم أخرج اللحم في فمه وأكله سريعاً وترك الخبز.

تحرك صوب سعد، مزق جيبه بأنيابه، ظل سعداً يهتز كاتماً ضحكات كاد أن ينفجر بها. أخرج الكلب اللحم من جيبه والتهمه وترك الخبز، ولمَّا لم يعثر الكلب على لحم آخر بحوزتهم؛ تركهم ومرق بين الضباب.

انفجر سعد ضاحكاً، وانفجر سعيد باكياً، سأله سعد:

– ما يبكيك يامبلل الساقين؟

حدجه غاضباً، ثم صاح به:

– كنت أريد أن أعطي أمي اللحم وأترجاها أن تدفنني بعد موتي في زير به لحم، ولكن بعد فُقداني اللحم فمؤكد أنها ستدفنني في بلَّاص مِش بدوده.

الخِضر

حادثة كان يتغنَّى بها كثيرًا!

في المقهى، وفي جلسات السمر، وحتى بين خلجات نفسه:

"قديمًا؛ عندما سُئلَ "الخِضْر" من طرف النبي "موسى": "أقتلت نفسًا زكية بغير نفس؟" أعلمه الخضر بأن هناك حِكمة إلهية وتأويل لن يعرفه إلا إذا تحلّى بالصبر ورافقه في طريقه حتى النهاية."

سأله القاضي:

– ما هي الدوافع التي جعلتك تقتل زوجك المدعوة "نجاة الغول" عمدًا؟

من خلف القضبان الحديدية، ومرتديًا بذلة السجن البيضاء؛ كان "مجدي حسانين" الشهير في منطقة" إمبابة" بلقب" الخِضر" ظاهرًا للعيان أنه ذا جسد نحيف، ورأس رفيع حل الشيب بفوديه، أما العمر فربما قد ولج عقده الخامس منذ عهد قريب.

بنظرات ساخرة تطلّع إلى القاضي ذو التقاسيم الهادئة، والبدلة الحريرية الرمادية، والمستشارين ذوي الأجساد الممتلئة، وممثل النيابة الضجر، ثم شرد لحظات، متطلعًا خلالها إلى أعلى بعينيه الجاحظتين، اللتين تقوّس التورم والسواد أسفلهما، ثم قال فجأة بصوت خاشع مستسلم:

– قتلتها لحكمة؛ لا يعلمها إلا الله!

ثم عاد لشروده من جديد، وسَرتْ همهمة بين الحضور في القاعة، قَبض القاضي على إثرها بالمطرقة، وراح يدق بها فوق المكتب أمامه؛ طالبًا منهم الصمت.

مجدي؛ لم تكن تلك مرَّته الأولى التي يُجِب فيها بغموض، ولا الثانية؛ ديدنه كان ارتكاب الأفعال التي ربما يراها غيره خاطئة، واتخاذ القرارات غير المتوقعة، ثم اتهام القدر والنصيب، وتلك الحكمة الكامنة؛ التي هي دائمًا: "لا يعلمها إلا الله". في كل مرة كان ينتظر وحيًا ليؤول له أفعاله، وعبثًا لا يجد سوى التمادي فيها.

قديمًا؛ هجر أبيه قريته، كان طفلًا حينذاك، لم يتخطَ العشرة أعوام؛ كانوا في القطار؛ أبوه وأمه وأخيه الصغير. وقتذاك؛ سأل أبيه بغتة:

– لماذا تركنا دارنا في القرية يا أبي، وجيراننا وأصحابنا، ونتجه إلى مِصر التي لا نعرف فيها أحدًا؟

كان أبيه الفلاح البسيط، ذو الجلباب الفضفاض والطاقية المتآكلة "حسانين أبو محروس" الجالس فوق المقعد ومن حوله عائلته جالسين ــيركز في سؤال طفله الجالس أمامه بابتسامة ساخرة؛ ورثها مجدي عنه فيما بعد، ويتطاير دخان التبغ من فاه إلى أعلى موازيًا لألسنة البخار المُتصاعدة من كوب الشاي الساخن في يده، والمُتشابكة مع دخان لفافة التبغ بين أصابعه. كان صرير

دواليب القطار وقرقعة عرباته يؤلفان خلفية صوتية رتيبة، عندما أجابه أبوه فجأة:

– فعلتُ ذلك لحكمة لا يعلمها إلا الله!

ثم أشاح بوجهه عنه. ذُهل مجدي، وجحظت عيناه شاردًا: لربما كان أباه من المباركين العارفين؛ أولياء الله الصالحين، ولمّا يصلون إلى مصر سيجدون الخير الوفير. زمّتْ أمه شفتيها وأدارتهما إلى جانب وجهها ممتعضة، ثم صوّبت نظرها خارجِ زجاج النافذة تتأمل اللاشيء، وتفكر في ذلك المَثَل الذي يقول: "خلِنا وراء الكذاب حتى باب الدار."

حسانين؛ لم تكن –أيضًا– تلك مرَّتِه الأولى التي يُجِب فيها بغموض ولا الثانية؛ ديدنه كان اتخاذ القرارات المفاجئة، وتجشم مالا طاقة له من الأفعال والأعمال، ثم ترك الحكمة الكامنة في علم الغيب؛ لتسد له بقية الثغرات. في كل مرة كان ينتظر وحيًا ليكشف له الستار عن التأويل الذي ينتظره، وعبثًا لا يجد سوى التمادي في قراراته وأفعاله.

كلما تذكر مجدي ذلك أيقن أن تلك البركات ورثها من أبيه العارف؛ رغم أنهم لم يجدوا في مصر إلا الشقاء! كانوا يبيتون ليلهم في الطرقات، ويعملون نهارهم جميعًا في أي شيء: حمّالين، عتّالين، عمال، تجار. حتى حَطّوا رِحالهم آخر الأمر في منطقة إمبابة، واشتروا قطعة أرض ونصبوا عششهم بها، وعملوا في جمع الخردة.

بعدما توفيا والديه؛ تزوّج مجدي "نجاة بنت الغول" جارته، وكان أبيها حوذي يعمل معه. يذهب إليه صباحًا، فتخرج له نجاة؛ أقل أخواتها جمالًا؛ تبتسم له، ثم تذهب لتصنع له ولوالدها الشاي، بينما ينتظر الخِضر جالسًا فوق المِصطبة. يفكر في ذلك المثل: "الزوجة الجميلة؛ لك وللناس، أما القبيحة فلك لوحدك!" ويداعب شاربه مقتنِعًا.

يركبان العربة ويدوران بالطرقات ماريين بالورش والبيوت لجمع أي خردة: ثلاجة قديمة، تلفاز، غسّالة، مروحة. ثم يبيعون كل ذلك جملة لتجار خردة كبار. وقتذاك؛ سأله الغول:

– ولماذا نجاة بالذات التي تريد الزواج منها؛ لدي خمس فتيات أخريات أجمل منها بكثير؟

أجابه مبتسمًا ذات الابتسامة الساخرة:

–إنها القسمة والنصيب! فلن يتزوج أي رجل زوجة غيره أبدًا؛ كل رجل منا مكتوب اسم زوجته على جبينه.

أومأ الغول برأسه مؤمنًا على حِكمته.

عندما رُفِعتْ الجلسة للمداولة؛ جلس مجدي على المقعد خلف القضبان بلا اكتراث لأي شيء مما يحدث حوله؛ كأن من يحاكم واحدًا غيره!

أخيه الصغير كان قد هجره بلا رجعة، يتذكر مجدي آخر مرة رآه فيها؛ كان حازمًا أمتعته، هامّا بالرحيل، سأله قائلًا: إلى أين تشد رحالك، ولم الرحيل؟

بسخط أجاب:

– ولماذا تسأل الأن عن سبب؟

صمتَ مجدي مستحيًا، فأضاف أخوه مُتهكمًا:

– إنها الحكمة يا أخي: تلك هي الحكمة الكامنة في علم الغيب؛ وأنت سيد العارفين!

ثم رحل إلى الأبد، وطأطأ مجدي رأسه. لقد كان على وشك خُسران البركة؛ الإرث الذي خُصص له؛ الحكمة الغيبية المُبهمة، خلف خطوات مباركة، صوب غاية هي في حد ذاتها؛ هي ذات الحكمة المطلسمة عن الجُهّال من البشر؛ مثل أخوه الصغير. رغم أنه نال حظًا من العلم بمدارس إمبابة، إلا أن ذلك العلم لم يجعله عارفًا بقيمة الإرث المبارك! وقيمة مجدي العارف؛ حتى أنه كان يجادله كثيرًا ويناكفه، ويهزأ من قراراته المفاجئة، وأفعاله الغامضة، ولما لم يجد بدًا مما ليس منه بد؛ رحل.

أصبحا وحيدين؛ مجدي وزوجته، حتى الأطفال لم ينجبوها؛ وهو يعلم جيدًا أنهم رزق مُنع عنه لحكمة أيضًا، ورضي بذلك، وشعر أنه ليس بساخط: سأُرزق بهم في الجنة إن شاء الله. هكذا كان يعتقد.

كان يقعد بين أكوام الخردة يفكك مروحة، أو يزيل الأتربة الدبقة عن تلفاز، وزوجته تجلس على مصطبة بالقرب منه تتأمله بنظرات؛ يتضايق مجدي منها، ويحاول أن يبعدها عنه:

– اصنعي لنا كوبًا من الشاي بدلًا من الحملقة فيّ بعينيك الحمراوتين؟

حتى حانت لحظة قتله لها؛ كان يشعر آنذاك بأن يداه التي تمسك بالسكين ليست يداه، بل أياد القدر، وهو مُجرد سبب، ولابد أن يحدث ما يفعله الآن؛ حتمية لا يملك إزائها حتى التردد أو التفكير: كلنا أسباب تمشي على الأرض، والمكتوب مامنه هروب. هكذا كان يردد بصوت علا عن صراخ زوجته واستغاثاتها، حتى غرقت في دمائها وصمتت ليردد جملته هو في خشوع وسكينة...

زلزلته فجأة صيحة الحاجب:

– محكمة؟

عاد القاض إلى الجلسة؛ وفتحت لتبت في جريمة مجدي حسانين:

"حكمت المحكمة بالإعدام شنقًا على المُتهم (مجدي حسانين) لقتله زوجته عمدًا، والاعتراف بجريمته _ وإحالة أوراقه إلى السيد مفتي الجمهورية."

صدَر الحُكم. همّ مجدي بأن يعترض أو يسأل هيئة المحكمة سؤالًا ما؛ ولكنه سرعان ما تراجع مرددًا بغمغمة وطيئة:

– سأصبر ولن أتعجّل كما تعجل النبي (موسى) فمعرفة الحكمة التي لا يعلمها إلا الله باتت قريبة.

شيماء

وقتما كنَّا صِغار؛ تمنيّنا أن نكبر بفارغ الصبر...

وما كادتْ أن تدور بنا رحى السنين، وتحملنا فوق جعجعاتها، وتقذف بنا إلى المستقبل، لنكتشف أننا كبرنا؛ صِرنا يافعين؛ حتى ندمنا ندمًا وفيرًا! وتمنينا عودة أيام الطفولة.

وحدها "شيماء" التي لم تندم! ولماذا تندم أساساً؟ هي تعتقد بل تؤمن بأن الذين يندمون هم فقط ضِعاف الإرادة، وهم أيضًا الجبناء: ولا جبناء غيرهم.

ولِمَ لا وقد أوتيت من كل شيء قَدرًا ليس بهين؛ وحده الجمال الذي طمعت في ثلاثة أرباعه؛ وجهها أبيض مشوب بحمرة عنّابية، وعيناها واسعتان سوداوان كحيلتان كعينا "نفرتيتي" وشفتاها متورمتان بورم جذاب. جسدها منحوت من حجر رخامي صلد، أما قامتها فمعتدلة اعتدالًا محيِّر.

اجتازت الثلاثين من العمر. ملابسها دائماً ضيقة، وشفافة؛ تمتلك بروزات وتضاريس دائمًا ما تجعل جميع الذكور تتنبه إلى طُغيان وجودها، حتى وإن كان أحدهم رضيعًا فتجده يصرخ مادا يديه صوبها، ولا يكف عن الصراخ

الفهرست

ويهدأ إلا إذا حملته فوق نهديها الضخمين، وربتت عليه بحنان؛ وقتها يبتسم ببله وهو يتأملها جاحظًا!

حتى الإناث، ينتبهن لها، مُتقدات بنار الغيرة، والحسرة على شحومهن المتدلية من أعطافهن، وقِصرهن ونمشهن، وجفافهن، وضآلة تضاريسهن، فيتهكمن على هيئتها، وعيونهن تلمع بالحسد متمتمات: نفخ... سيليكون!

أو مُصدرات حكمهن القاطع عن مصيرها: سافرة مآلها جهنم وبئس المصير. تتفهّم جيدًا أن: القبيحات هن من يقلن ذلك. ولكنها مقتنعة بقاعدة ما: "إن كانت هي من تشبه في جمالها الحور ستدخل الجحيم فلمن خلقت الجنة؟!"

ومادام لكل مولود حظ من اسمه؛ فـ"شيماء" لم يكن اسم فقط بل كان صفة، فليس كل ما تمتلكه جسد جميل فقط، بل مثقفة وأوتيت عقلًا فائق الذكاء أيضًا، فهي تؤمن بعدة مبادئ؛ أهمها: إن المرأة تساوي الرجل، وأنها ليست سلعة للجنس والمتعة، وليست ناقصة بل هي كائن مكتمل خلق حرًا.

في الحافلة؛ كانت واقفة بين الزحام، ثم وقف لها شاب ثلاثيني لتجلس مكانه، ولكنها نهرته:

– لن أجلس! شكرًا لك أستطيع الوقوف مثلكم، لا فرق بيني وبينكم، المرأة مثلها مثل الرجل، ليست أنثى ضعيفة منكسرة كي تعطف عليها حضرتك بمقعد، وليست آداة جنس شهوانية كي تحملق إليها هكذا؟ بل ولدت حرة مثلك.

كان الشاب يحملق متعجبًا من كلامها الغريب ليس إلا، ولكنه نفض رأسه من كلماتها السابقة فتساقطت كلمة إثر كلمة، ثم قال ضاحكًا:

- إن كنتِ ترين نفسك حرة، ورجل مثلي مثلك، فلماذا أنت غاضبة من نظرتي إليك؟ يبد أنكِ أنتِ من تعتبرين نفسك "آداة جنس". وإن كنتِ حرة مثلي فبالأحرى أنا حر أيضًا أنظر أنى شئت، فلا تحاسبينني إذن "يا مدام".

امتعضت صائحة:

- آنسة لو سمحت؟

فضحك الشاب وبعض من كانوا حوله يتابعون المناظرة الساخنة _ ضحكات ساخرة، فأشاحت بوجهها عنهم متمتمة: ذكور همج متخلفون. في هذا اليوم آلمتها "الدوالي" التي تشعبت في قدمها من كثرة الوقوف، لكنها كانت صامدة لا تبالي.

ربما كلفتها مبادئها هذه هروب العرسان منها، ولكنها لا تستسلم أبدًا، فالزواج بالنسبة لها شيء ضد مبادئها، فجملتها الشهيرة التي تفحم بها أي سائل أو سائلة عن تأخر زواجها: "الزواج في مجتمعنا عبودية تتنافى مع الحرية التي اقتنصتُها بمولدي" _ حفظها جميع من حولها عن ظهر قلب.

تتأمل النساء؛ ممن هن في سنها، يحملن أطفالهن الرُضّع سعيدات، ويمشين بجوار أزواجهن في سلام، يتضاحكان يتداعبان، يجرَّان أطفالهم الكبار خلفهم

فتتمتم هي بحنق: بلِهات خانعات! لماذا لا يحملون عنهن الأطفال؟ ألا يكفي أنهن حملوهم تسعة أشهر في بطونهن؟!

دائمًا ما تسألها أمها:

– ألن تستقرين في بيت ويصبح لكِ زوجٍ وأولاد؛ حتى تريحي روح أبيكِ – رحمه الله– في قبره؟ الفتيات في مثل سنكِ لدى كل واحدة منهن رهط من العيال.

ودائمًا ما تجيب:

– إن رضي بشروطي فمرحبًا به.

فتغضب أمها وتطلب العوض من الله فيها. أما الشروط التي تشترطها شيماء في مشروعٍ زواجها، وفي رجل المستقبل، فهي نفسها لا تتذكر منها سوى "الحرية" ومشتقاتها:

– لا يسأل أين سأذهب؟ ومن أين أتيت؟ ولا يقرر لي ما ألبس وآكل، ومن أصاحب؟ وما أقول وما لا أقول؟ لا أنجب إلا طفل، وبعد عامين من الزواج، ولن أرضعه طبيعيًا؛ لأحافظ على جمال جسمي، وتناسق قوامي، وإن ألغينا الإنجاب فهذا أفضل؛ لأنها غريزة حيوانية تحط من شأن المرأة، ونقطة ضعف وسقطة لها؛ تضغف من موقفها في حربها ضد الرجل.

تشعر أمها بأن ما تلاقيه من ابنتها الوحيدة؛ ذنوب يتم تطهيرها منها ببطء:

– يا بنتي وهل من سيرضى بذلك في بلادنا؛ تعتبرينه أنتِ رجلًا؟!

تصمت، وتفضل ألا تجيب رأفة بحال أمها التي تخطت الخمسون سنة، وقلّ مجهودها البدني والذهني.

كانت تظن دائمًا أن مشكلتها مع ذلك المجتمع الذكوري المتخلف، ولكنها تدرك الآن أن أمها أيضًا تفكر مثلهم؛ إذًا هناك مجتمع أنثوي متخلف أيضًا عليها أن تحاربه، وتجدد فكره العقيم ليضاهي الفكر الغربي المتحضِّر، الذي لطالما أبهرها، وخلب لبها، وأصبحت تستقي كثيرًا من مبادئها وثقافتها منه؛ بل إن ثقافتها فاقت طموح الغرب بكثير!

تدخل إلى "الفيس بوك" وتكتب سؤال:

"لماذا لا يسمح للمرأة في مجتمعاتنا بالجمع بين الازواج مثل الرجال؟"

وتترك الأصدقاء بصفحتها يتناحرون مع بعضهم البعض، ويلقونها بالإتهامات في التعليقات ولا تجب على أحد منهم! حتى أن أحدهمم كتب لها: "يمكنك ممارسة ذلك بكل حرية تامة، ولكن خارج إطار الزواج؛ لأن الزواج له قواعده التي لا تتناسب ورغباتكِ في العهر والانحراف."

"متخلفون بحق!" كان ردها الوحيد على هذا التعليق. آخر عريس تقدّم لها؛ قالت له قبل أن يجلس: أن اعترافه بأن المرأة تساوي الرجل؛ شرط أساسي لقعوده. فاومأ موافقًا، فسمحت له، ثم ألقت عليه وابل شروطها أياها واستفاضت في الشرح. ولمّا انتهت قال:

– موافق!

ذهلت شيماء وأمها، ولكنه قاطع ذهولهن بأن قال:

– ما دام لكِ شروط فأنا لي شروط أيضًا لابد أن تبادليني الموافقة عليها؟

فسألته بدون اكتراث:

– ألقِ ماعندك؟

كان شابًا في الثلاثينات من عمره؛ لم تهتم بمعرفة اسمه حتى؛ يسكن بنفس منطقتهم، ولكنها لم تتحدث معه من قبل؛ وسيم، متوسط القامة، ومتأنق. ارتسمت على وجهه ابتسامة ساخرة وهو يقول:

– تدفعين معي نصف ثمن الشقة، ونعمل معًا بمرتبات متقاربة. سيلغى المهر، والمؤخر، وقائمة المفروشات، والغرامة، وزياراتي لكم في المواسم، والهدايا. وستتحملين نصف تكاليف العرس، وسأتحمل أنا نصف ثمن تجهيزكِ. ليس لكِ ميراث، ليس لكِ...

كانت شيماء جاحظة العينين لا تصدق ما يقال: كيف غاب عنها أن تتوقعه يرد بمثل ذلك الهذي؛ فعلاً الذكور صنف "حويط"؟! كانت تتخيل نفسها –وهي جالسة– تبحث عمّن تقترض منه المال، فمعاش أبيها –رحمه الله– لا يكفي شيئًا، وإن وجدت –وهذا مستحيل– وتم الزواج، فهل ستستيقظ عند

السادسة يوميًا لتذهب إلى العمل مسحولة لسد ديونها؟ هل ستدور مثل البقرة بالساقية! ما هذا الظلم! وما هذا الذي يقوله! أفاقت لتجده ينهي كلماته:

– ... بهذا نحقق المساواة التي نؤمن بها سويًا.

لم يتفقوا بالطبع، ولكن تركت جلسته معهن صدعًا في إيمان شيماء بمبادئها، أخذ يتسع رويدًا رويدًا مع مرور الأيام. ربما تعقّد الأمر ولكن من الطرف المعادي؛ وهذا ما لم تتوقعه، وذلك مما جعلها تقرر: بلاها شقوة. أمها فرحت بما دار بينهما، رغم وجع قلبها على: ميل بخت ابنتها.

بعد شهر من ذلك؛ جهزّت الأم العَشاء، ولمّا دخلت غرفة شيماء كي تخرجها ليأكلا معًا، بعد أن نادت عليها مرتين ولم تجب؛ وجدتها جالسة بمنامتها إلى ظهر السرير تنتحب، موارية عيناها خلف كفيها، والدموع تنهمر بلا رادع! وأمامها الحاسوب المحمول مضيئًا. نظرتْ به الأم، تأملت ما يظهر على الشاشة بذهول للحظة كانت كافية كي تنتبه خلالها شيماء لوجودها! فسارعت شيماء بإنزال شاشة الحاسوب لتغلقه وقد نقأ وجهها خجلًا!

ابتسمت أمها بخبث قائلة:

– هيا لنتناول عشاءنا الآن والصباح رباح؟

الشفق الدامي

(١)

الروائح المتباينة تضغط أنفي.

الزجاج بجانبي مغلق.

يصيح أحد الركاب جواري: هلا أزحتَ الزجاج قليلًا إلى الخلف؟

ضوضاء تتحلق كل الآذان.

– أنا مزكوم صدقني!

– سنختنق... افتح الزجاج قليلًا... هذا غير صحي بالمرة!

تقيد إنارة الحافلة الداخلية متقطعة ثلاث مرات متتالية، فيصيح إثرها الكمسري: الثلاث تذاكر التي ركبت من الأمام... إبعث لي في الخلف؟

يحاول واحد الجلوس بجواري ومزاحمتي!

– مقعد واحد؛ ليس بي خاصية الانكماش صدقني؟ لستُ حلزونًا!

أصيحُ به فيعود أدراجه بين المتشبثين بمشاجب السقف، في طرقة الحافلة المكدَّسة بهم.

عبثًا أحاول تأمل "شارع التسعين" –الواقع بالقاهرة الجديدة– من خلف الزجاج؛ يرتطم بصري بشتى اليافطات المكتظة بالإعلانات:

"في شارِع التسعين: فيلا للبيع بسعر مغري؛ (٢٥) مليون جنيه فقط؛ للاستفسار اتصل على..."

لابد أن هذه الطرق عُبِّدَت كي تزرِع على جوانبها أعمدة اليافطات!

هناك طفل جميل يتاملنا مندهشًا من خلف زجاج سيارة تقودها والدته، التي بدت من خلف الزجاج ثلاثينية شقراء. وعلى بعد عشرات الأمتار أمام الحافلة؛ وفوق الرصيف؛ عجوز تتحيَّن الفرصة لاجتياز الطريق بأمان.

وبعيدًا في الأُفق شفق يبدأ في زركشة السماء استعدادًا للغروب.

يدق هاتفي "النوكيا" الصغير، بنغمة كنتُ قد ضبَّطها لاستقبال الرسائل؛ أنتبه من تأملاتي؛ فأستله من جيب بنطالي"الترينج" أنظرُ فأجدها رسالة من شركة الاتصالات: "اشحن بـ(٥) جنيهات أو أكثر ولك (٥) دقائق هدية لنفس الشبكة وثلاثة لأي شبكة أُخرى..."

أُعيده إلى جيب بنطالي، ثم...

– هلّا ابتعدت قليلا بجسدك الدبق هذا؛ رقبتي تؤلمني، لقد اتخذت وضعية برج "بيزا المائل"؛ هل تعرفه؟

رجل بجسد ضخم متعرِّق. يجيبني:

– لا!

– ولا أنا!

يضحك لمزحتي ثم يستدير برأسه إلى من يلتصق بظهره صائحًا:

– مُر يا أستاذ من خلفي في يومك هذا إن كنت ستمر؛ لقد أصبحتُ فوق حِجر الجالس أمامي؟!

ويُسمع نداءً ضعيفًا من مكان ما في الحافلة:

– لابد أن نتحمَّل بعضنا البعض يا جماعة؟

يتبعه نداء آخرن أسمعه بعد أن أُغلق عيناي ناشدًا النوم ولو لبرهة:

– تقدَّموا فالطُرقة شاغرة بالأمام...

(٢)

– حبيبي... ماذا تفعل؟

أصيح في صغيري ذو الخمسة أعوام في المقعد الخلفي _ الملتصق بزجاج نافذة السيارة متأملًا حافلة هيئة النقل العام الزرقاء، والمارة بجوارنا على الطريق!

لا أدري ما الذي يبهره في ذلك المنظر اللزج...

– لماذا لا يمتلك كل واحد منهم سيارة مثلنا يا أمي؟!

يسألني! هو صغير لا يعي:

– حبيبي... هؤلاء فقراء.

يقلب شفتيه:

– ما معنى فقراء يا أمي؟

بماذا أجيبه؟

– حبيبي؛ هم من لا يمتلكون إلا القليل من كل شيء: المال، السكن، حتى الذكاء!

يصمت قليلًا وكأنه يفكر فيما قلت، فأحاول الانحراف من أمام الحافلة لأجتاز الزحام ولكني افشل.

– أريد أن أصبح فقيرًا يا أمي؟

يفاجئني بسؤاله، أضحك:

– إذًا ستترك الحضانة الجميلة التي تذهب إليها يوميًا، ولن تتعلم في مدرسة لغات بل ستذهب إلى مدارس حكومية؛ مدرسوها سيضربونك دومًا على إهمالك لواجباتك، أو لعدم حفظك لدروسك، وستذهب إلى المدرسة مشيًا على أقدامك حتى تتورَّم.

يصمت لحظة ثم يجيب:

– لا أريد أن تتورَّم قدماي، ولا أريد أن أُضرَب أو أحفظ يا أمي، بل أريد أن أفهم؛ هكذا يخبروننا المدرسون في الحضانة!

الحمد لله؛ عَدَل صغيري عن رأيه، وانشَغَل باللعب في هاتفه اللوحي.

سأحاول الآن أن أجتاز الحافلة حتى أُحاذي اليمين وأنطلق صوب "مدينة نصر".

زوجي ينتظرني في أحد المطاعم، سنتناقش سويًا في أمر إعلان الفيلا المعروضة للبيع بسعر مغري _ على جانب الطريق؛ أظنها فرصة حقيقة تستحق أن تُنتهز، وقد دوَّنتُ رقم هاتفهم.

وأخيرًا أنجح في اجتياز الحافلة والانعطاف يمينًا واستباقها بسرعة ولكن...

– من أين ظهرت تلك العجوز التي انبثقت فجأة أمام السيارة!

أُصيح بأعلى صوت لدي فجأة! وأضغط بقدمي دوّاسة المِكبح...

(٣)

سأمر الآن.

فليحدث ما يحدث؛ لابد من المرور، وإيقاف سيارة بالجانب الآخر؛ أريد اللحاق بابنتي في المستشفى بالتجمع الأول.

لقد قلت لها ألا تأتِ مع زوجها المهمل إلى مصر!

حارس عقار! هو رجل إنما هي؛ بنيتي مريضة، لن تتحمَّل الخدمة في البيوت لدى الباشاوات.

كان يقول لي دومًا: بنتكِ في عيناي يا خالة.

وهل سيكفه مرتب الألفين جنيه ليضعها في عينيه، وهم لديهم من الأولاد ثلاثة: لابد أنه ضغط عليها وجعلها تخدم، وإلا ما الذي جعلها تغيب عن الوعي وتسقط طريحة الأرض، كما قال لي ابنها الصغير حين هاتفني بالأمس.

"الفيوم" ليست بعيدة؛ أنزلني السائق هنا، ولم يدخل: سأمر الآن.

الحافلة باطأت من سرعتها، سأتقدم، فالسيارات بالجانب الآخر متئدة؛ لابد أنهم ما إن يروني كبيرة في السن، سينتظروني كي أمر من أمامهم؛ فثوان قليلة لن تضيرهم شيئًا.

أتقدَّم وأعبُر من أمام الحافلة، وما إن أبرز من أمامها إلا وأجد سيارة فارهة تنعطف صوبي مسرعة فأتيبس مكاني منذهلة.

وأزيز مكابحها المرتفع يصم أذناي كلما زحَفَت في اتجاهي!

(٤)

أستيقظ من غفوتي التي لم تمتد بما فيه الكفاية كي تستفيق مداركي _على صرخة مكابح سيارة بجوار الحافلة.

أشرأبُ برقبتي من النافذة محاولًا استكشاف ما يحدث.

أجدُ الشفق يقطر دمًا على الأسفلت، فيصنع بِركًا حمراء داكنة؛ تعكس الغروب.

غُروب؛ تودِّعه أشلاء امرأة عجوز.

المُغفَّل

الحب بين المرأة والرجل عاطفة نقيَّة؛ إن يكن مأربها الحقيقي اجتماع الأحبة بالزواج، وبناء أسرة مترابطة. وأفضل أنواع الحب؛ ذلك الحب الذي يأتي بعد الزواج مع العِشرة، وتواتر الأيام؛ حيث يتعرّف كل طرف على الآخر دون حجبًا: مثل حُبي لزوجتي، وحبها لي.

رغم أني تزوجتُ والحمد لله منذ ثلاث سنوات، وأصبح لدي طفل جميل مثل أمه، إلا أني في أواخر الأيام الماضية، اكتشفتُ أن هنالك شخص مجهول يحبني، بل يعشقني، وأنا حقيقة لا أحب سوى زوجتي؛ وتصلني منه رسائل غرامية تترى، وهدايا ثمينة، وورود جميلة لا أعرف أسمائها؛ حتى أن زوجتي كانت تضحك ملء شدقيها حينما أفرّجها على الهدايا، أو أجعلها تقرأ الرسائل، أو حينما قلتُ لها أن تشتري مزهريات لذاك الورد، كانت تقول لي:

– دعنا نتسلى به ذاك المغفل؟

كل هذا ليس غريباً، إنما الغريب أن هذا العاشق رجل! ويخاطبني في رسائله على أني أنثى، ولكنه لا يكنيني بأي اسم سوى "حبيبتي"، وكلما أرسلتُ له رسالة وحاولتُ أن أشرح له أني رجل مثله؛ لم يكترث وواصل سذاجته وغبائه، هو لم يكلمني أبداً، ولم أسمع صوته قط؛ إنما هي تلك الرسائل الغبية التي من كثرتها جعلتني أشك في نفسي.

الفهرست

حينئذ؛ وقفتُ أمام المرآة أتفحص شكلي؛ لم أجد شعراً طويلاً ناعماً مُنسدلاً فوق أكتافي، إنما وجدت ذلك الرأس الضخم ذو الصلع الخفيف البادىء تواً في التهام الشعر، وتلك العينان المفتوحتان بتراخ بسبب ضعف البصر خلف نظارتي الطبية، وذلك الأنف الضخم المعقوف، وذلك الشارب المُتهدل، وتلك الأسنان غير المتناسقة والتي ما أن تنظر إليها حتى تحسبها هامة بمغادرة الفم، وذاك اللُّغد الذي انبثق فجأة ولا أدري متى وكيف؟ وتلك القامة المتوسطة، وذلك الكرش الذي يكاد أن يقلبني على وجهي من ضخامته كلما تحركتْ، والذي يُظهر من أسفل منامتي المُشجرة أثر ذلك العز الذي درجتُ فيه ولا زلت أدرج؛ إذاً فأنا لا زلتُ رجلاً وسيماً كما كنت دائماً!

سألتُ الزملاء بالعمل؛ إن كان أحدهم وراء تلك المُغازلات، فاستهزأوا بي ضاحكين، والحالة هذه؛ شككتُ فيهم كلهم، ولكن دون دليل!

زوجتي تحبني حباً حقيقياً، ورغم ذلك أشعر بأنها بدأت تغار عليّ من هذا الأحمق المُعجب بأنوثتي التي لا أملكها.

ذات مرة وصلتني رسالة كالعادة، وبعدما قرأتها، وجدتها رقيقة، اقشعر جلدي لها، كان يقول فيها: "حبيبتي؛ أحمل في قلبي لكِ حباً إن وزعته على جوعى العالم لباتوا ليلتهم شبعى!"

، ولمّا قرأَتها زوجتي حينما كنا مُتكئين على السرير ذات ليلة دافئة؛ ضحكتْ كثيراً، وقالت:

– لربما يعمل في "بنك الطعام"!

واندلقنا في الضحك اللاإرادي حتى غرقنا، وفجأة؛ قالت زوجتي الجميلة:

– مارأيك في أن نداعبه ونلاعبه بنفس أسلوبه؟

عجبتني الفكرة، وأردتُ معرفة تفاصيل أكثر، فسألتها:

– كيف؟

ضيَّقت عيناها، وقالت بدهاء:

– لمَّا يُرسل لك رسالة حب جميلة، تُرسل له رسالة حب أجمل منها دون أن تُحقق له مُراده؛ إن أراد مقابلتك فلا تقابله، إن أراد صورتك فلا تُرسلها؛ فقط داعبه وماطله؟

– مؤكد لن أُقابله ولن أُرسل له صوري! ولكن ما جدوى تلك الحيلة المُتعبة؟

– سيمَل رويداً رويداً، وستنقطع رسائله يوماً ما.

صمتُ هنيهة؛ وحمدتُ الله الذي رزقني بزوجة ذكية، تقف بجانبي في كل مُشكلة صغيرة كانت أو كبيرة؛ تلك هي المُشاركة، وذلك هو التكامل والمساواة؛ لذلك ماندمتُ أبداً على زواجي منها ودائماً أدعوا لأمي التي عرَّفتني بها، واختارتها لي. ابتسمتُ قائلاً:

– رائعة فكرتكِ زوجتي الحبيبة؛ ولكني لا أعرف كيف تُكتب رسائل الحب المُلتهبة تلك!

– أنا سأساعدك.

– وهل تعرفين كيف تُكتب؟!

– بالطبع يا حبيبي، فكيف أكون زوجتك، ولا أعرف ما هو الحب؟ ولا أعرف كيف أكتب رسالة حب؟! أنت مُلهمي صدقني.

خجلتُ حينها من إطراءاتها الحُلوة في حقي، ومنذ ذلك الوقت؛ وأصبحتُ أترك الهاتف لزوجتي كلما أتتني رسائله، وهي مع نفسها؛ تتخيلني أمامها إن لم أكن معها، أو تنظر في عيناي إن كنت معها، وتتفنن في كتابة رسالة غرامية، وأحياناً تطلب منه الهدايا، والمُغفل يُرسلها، وأنا كلما أتت هدية ضحكت ضحكاً حتى أصابني الفواق المُتواتر، أما زوجتي فتأخذ الهدايا سعيدة، لأنها وجدت المُغفل الذي يُحضر لها كل ما تتمناه بالمجان ودون أن تُكلف نفسها عناء الذهاب والإياب لشرائه.

ذات مرة أرسل صورته؛ كان شاباً أغيداً، ومُبالغاً فيه من شباب هذه الأيام؛ يرتدي ثياباً شبابية ضيقة، نحيف الجسم؛ واضح أنه من عائلة فقيرة يُكملون عشاءهم نوماً، لا لحية في وجهه ولا شارب؛ أقرب إلى النساء في هيئته من الرجال، حتى عندما أريتها لزوجتي ظلت مشدوهة من تفاهة شكله، ونحول جسمه، وتقاسيمه التي أقرب إلى تقاسيم زوجتي من تقاسيم الرجال. ومنذ ذلك الحين، ومنذ إرساله تلك الصورة المُضحكة، وقد لاحظتُ انخفاض

وتيرة رسائله، حتى توقفت تماماً؛ حينئذ حمدتُ الله، وتأكدتُ أن الفضل كله يعد لزوجتي ولأفكارها الجُهنميّة.

بالأمس عُدتُ من العمل مُبكراً؛ لم أجد زوجتي بالبيت، ولم أجد الطفل أيضاً، وبعد أن أخذت دُشّاً ساخناً؛ خرجت واتصلت بها، فوجدتُ هاتفها مُغلق؛ خمنتُ أنها عند أمها، أو ذهبت لتشتري شيئاً بصحبة صديقة ما، وقد فرغت بطارية هاتفها؛ إذ لابد أن نلتمس لبعضنا الأعذار، وإلا توقفت المراكب السائرة. الحياة ليست سفينة قوامها ربان ومسافرون؛ إنما بالحياة كلنا مُسافرون.

نِمتُ فوق الأريكة أمام التلفاز؛ وقد كنتُ أتابع أحد برامج الطهي، وفوق حجري طبق من العِنب كنت أُزجي به الوقت.

سمعتُ طقطقات حركة المُفتاح أثناء معالجة الباب، ثم دخلت زوجتي بدون الطفل، نظرت لها فوجدتها سعيدة مُبتسمة وبيدها حقائب قماشية وبلاستيكية كثيرة؛ عليها أسماء محلات ملابس وأحذية مُختلفة؛ وضعتهم فوق المنضدة. بدت مُتأنقة كعادتها؛ ترتدي بنطالها الضيق، وتيشرتها الطويل، وقد ضاع العطر من ثيابها، وشعرها مموج فوق كتفيها.

– حمداً لله على سلامتك؟

قلتها لها بصوت ناعس، فأجابني بحيوية:

– آسفة حبيبي تأخرتُ عليك!

الفهرست

– أين كنتِ؟ لقد قلقتُ عليك بسبب هاتفك المُغلق!

تناولتْ الطبق من يدي، أغلقت التلفاز، انتصبت أمامي:

– كنتُ مع صديقة لي نشتري بعض من الملابس والأحذية، وقد أهدتني حذاءً جميلًا أعجبني، وكانت ستشتري لي بنطالًا أيضاً ولكني رفضت واكتفيتُ بالحذاء، فلا يصح ذلك أبداً، لن أكلفها مالا طاقة لها به! وأعتذر لأني أغلقتُ الهاتف؛ فهذا كان طلبها كي نتسوَّق بلا إزعاج.

– حسناً فعلتِ.

ثم دلفت صوب المطبخ، وسمعتها تقول بصوت مُرتفع:

– حبيبي؛ أرجوك اِحضر الولد من عند جارتنا؟

قُمتُ مُتثاقلًا، خرجتُ، دلفت صوب شقة جارتنا، ضغطتُ الجرس؛ خرجتْ لي:

– لحظة وأُحضر لك الولد.

وبعدما أحضرته وقد كان نائماً حملتهُ ودلفتُ صوب شقتي، ولمَّا اقتربتُ من الباب، وهممتُ أن أدخل؛ سمعتُ صوتاً من خلفي يقول:

– من فضلك؛ أنا سائق السيارة الأُجرة التي استقلتها السيدة زوجتك...

خذ هذه الأشياء فهي تخصها؟

نظرتُ إليه مُتعجباً؛ لقد كان يشبهه كثيراً، بل كان نسخة من ذلك الشاب المُغفَّل الذي كان يُراسلني على أني أنثى، ويبعث لي بالهدايا! ولكن كيف عرف هذا السائق رقم الشقة؟ مؤكد زوجتي هي التي أخبرته ليتبعها بأشيائها.

ترك الأشياء أمام الباب وبدا أنها بنطالاً ذو علامة تجارية شهيرة؛ ربما صديقتها صممت عل شرائه وارسلته لها، ثم أسرع الخطى صوب المصعد الكهربائي، وسرعان ماهبط به، فناديتُ على زوجتي لتأخذ أشيائها، ودخلتُ الشقة مُتمتماً:

– سبحان الله؛ يخلق من الشبه أربعين.

إيمان

الموت أم الفِراق؛ أيهما يولد أولًا، أم أنهما يولدان معًا!؟

هل هما وجهان لعُملة واحدة: الحُب؟

حبيبتي؛ غربَت شمسها عن حياتي إلى الأبد، وأَمْسَتْ حياتي من بعدها ظلام مُطبق؛ لا أرى به ثمة أمل، ولا أَسْمَعُ به ثمة صوت، عدى صوته هو: "قلبي"...

قال لي وقتذاك:

- صدقني هي مغرمة بك حتى النخاع!

ظننتُ أنه يَبُثُّ بي الأمل لا أكثر، أويهديء من روع نفسي، ولكني الآن أصبحتُ أتقن لغة القلوب؛ سألته مستنكراً:

- كيَّفَ لعاشق الرحيل عن معشوقه في وقت هو في أمس الحاجة إليه؟

عندها تهادت نبضاته بطريقة مفاجئة. سألته:

- مالك يا قلبي ماذا جرى لك؟ مابال دقاتك قد تهادت؟ أشعر بأنها قاربت على التوقف! أرجوك لا تتوقف؟ عُدْ لنبضك؟ عُدْ إلى الحياة؟

أجابني متأففًا:

– أريد التوقف والموت لتبوء بذنبي؛ فما قيمة الحياة بعد رحيلها!

عندها سألته:

– أريدك أن تجبني: لماذا رحلتْ عني دونما عتاب؟ لماذا فضَّلت الصمت والهروب؟

صَرَخْتُ، تعالت صرخاتي؛ لم يجب عليّ؛ لقد توقف عن الحديث معي، ولا شيء هنالك إلا صدى صرخاتي، وفتات ذكريات أتقوَّت عليه وقت الضيق.

****

اسمي "شعبان".

أنتمي لإحدى محافظات الوجه القبلي.

وقد شاءتْ الأقدار أن تأتِ بي لأدرس في الجامعة بالقاهرة.

وأسكن في حي متواضع بأطرافها.

لي بعض من الأصدقاء؛ كسبتهم في الجامعة، من بعض من المحافظات.

في الأجازة الأولى؛ بدأنا تبادل الزيارات. صديقي المقرب لي كان "عِز" من أحدى محافظات الوجه البحري.

ركبتُ القطار لوحدي قاصداً إياه؛ أتذكر وقتذاك؛ انقباض قلبي وتزايد دقاته، وكأنه كان ينبهني لشيء يشعر وحده به! ولكني لم أكترث لتنبيهه!

استقبلني عز بمحطة القطار، ورحب بي:

– شرفتْ بلدتي المُتواضعة صديقي العزيز "شعبان"، هيَّا لآخذك في جولة لن تنساها أبداً ما حييت؟

وركبنا سيارة أجرة أوصلتنا إلى بلدته؛ تنزهنا بالبلدة، وتفرجنا على الحقول الخضراء، ومزارع الفاكهة، والترع، وتسكعنا بالطرقات كثيراً ثم ذهبنا لدارهم.

كانت داراً ذات طابقين من الطوب الآجر، وأمامها طريق ترابية واسعة، وخلفها الحقول الواسعة التي تتناثر بها بيوت القرية.

كنتُ قبل ذاك الوقت قد سمعتُ أن محافظة عز بالذات؛ بها أجمل بنات مصر، ولما رأيتها؛ تأكدتُ أنها أجمل بنات العالم أجمع؛ كانت خارجة من دار صديقي عز مهرولة، وكنا نحن هامون بالدخول، فكادت أن تصطدم بي – وياليتها اصطدمت– رَفَعَتْ بصرها وتَجَمْدَتْ موضعها! وجدتني منتصب أمامها كتمثال من شمع كاد أن ينصهر من نور وجهها؛ أتأمل القمر الذي بزغ عليّ فجاءةً!

وقَفتُ غارقاً في بحر السحر بعينيها السوداوين النجلاوين، وطامعاً في النجاة بالتعلق بأي هدب من صفي أهدابها المتراصين، أسفل هلالي حاجبيها الغزيرين. كانت بيضاء كسحابة ربيع، يشوب خديها احمرار عنابي، شفتيها تلمعان ببريق أخاذ، وطابع الحسن بوجهها المُدوَّر يشهد ويوثق أنها ذات

حسن ودلال. قامتها أقصر مني بقليل، أَنَا نفسي لستُ طويلاً، ومع ذلك فإن القصيرات لهن جاذبية لاتقاوم!

كانت تَرْفلُ في عباءة صفراء فضفاضة، وعلى رأسها طرحة بذات اللون؛ تَدَلَّتْ من أسفلها خصلات شعر بنية مموجة.

مر وقت ليس بقليل، ومازلت أقف كالأبله، وتقف هي كالبلهاء؛ حتى كُسر الصمت بيننا بصوت عز الذي كان يقف كالأبله أيضاً، وجه كلامه لي، قال:

– إيمان!

قلت في نفسي: آمنت بك ياخلّاق فيما أبدعت بذلك الوجه الملائكي!

نَظَرْتُ إليه، أضاف:

– إنها إيمان أختي في الرضاعة، نسيتُ أن أحكي لك عنها، وهي تسكن في ذاك الدار!

وأشار بيده إلى البيت الراقد بين الحقول من خلفنا. كان قلبي وقتذاك؛ يحدثني، ينصحني، ينبهني تارة بزيادة نبضاته، وتارة بكثرة انقباضاته، وما كنت أبالي لأي من حركاته.

ذَهبَتْ هي، ودخلنا نحن بعد أن عرفها لي وعرفني لها، لم تتفوه بكلمة سوى "أهلاً وسهلاً" وبحشرجة!

ليلتئذ؛ حدثني عنها كثيراً صديقي، وكانت ليلة ليلاء، وكنت مستمتعاً بالحديث عنها، كنت أتخيلها أمامي أثناء وصف عز لخصالها:

– طَيِّبَة طِيبَة انقرضَت من سنين –مثلك تمامًا– وهي أصغر أخواتها البنات وكلهن متزوجات، عمرها تسعة عشر عاماً، وليس لها أشقاء صبية، وتعليمها متوسط، وتعيش مع أمها، أما أبيها فهو خارِج البلاد.

نام عز، ولم أذق طعم النوم، ولا أعلم سبباً؛ كانت صورتها تتأرجح بمخيلتي كالبندول من فينة لأخرى؛ فأبتسم!

غرفة عز بالطابق الثاني، وبها شرفة صغيرة تطل على الطريق الترابي والبيوت التي تليه والمتناثرة بين الحقول.

شعرت بأن الشرفة تناديني، دخلتها؛ اِنْقَبَضَ قلبي لمَّا وقع بصري على إيمان المنتصبة تحت ضوء مصباح واهن بشرفة دارهم؛ تراقب غرفة عز –التي أَنَا بشرفتها– ولمَّا رأتني؛ أطفأت المصباح، ودخلت غرفتها وأغلقت باب الشرفة.

حينئذ؛ خرجت من أعماقي تنهيدة عميقة، وعدتُ أدراجي لأنم.

***

خرجنا ثاني يوم لنتسكع بالحقول وفجأة؛ خفق قلبي؛ فوجدتها أمامنا، خَمَنتُ؛ ربما كانت تتسكع بين الحقول الخضراء هي أيضاً مصادفة! استوقفناها

وسلمنا عليها، وتبادلنا الابتسامات للمرة الثانية، كنتُ أشعر بأن عيناها تقول شيئاً، ولكني لم أفهم أيضاً لغة العيون!

بدا أنها سَعِدَتْ كثيراً عندما رأتني، وأنا أيضاً كنت جد سعيد، وكأننا كنا نبحث عن بعضنا بعضاً وكان بيننا موعد، ولكنني ظننتُ لحظتها أن رؤيتها محض مصادفة، ولكني اكتشفت فيما بعد؛ أن الصدفة ما هي إلا مواعيد تتخذها القلوب سراً فيما بينها!

كم كانت صعبة عليَّ لغة القلوب، وكم تعذبتُ بسبب جهلي بها، قالت إيمان:

– أنا سعيدة لأني تعرفتُ بصديق عزيز لأخي.

أجبتها متهدج الصوت:

– أنا أسعد لأني تعرفتُ على أخت عزيزة لصديقي.

لم أكذب وقتذاك؛ فقد كنت أشعر بسعادة غامرة ولكني ما كنت أعرف كُنْهها!

دق جرس هاتف عز؛ قام ليتحدث بعيداً عنا.

كنّا جالسين تحت ظل شجرة جميز كبيرة، سألتها:

– أمخطوبة أَنْتِ؟

أجابتني بابتسامة:

- لا!

- أمرتبطة عاطفياً؟

أطرقت رأسها وضحكت ضحكة كتغريدات كروان يستقبل انبلاج الفجر قائلة:

- لا!

نَظَرْتُ إلى عز، قالت:

- ربما يحادث حبيبة!

ابتسمتُ، قلت:

- ما رأيكِ في الحب؟

- أمقته، ولا أريد أن أحب يوماً من الأيام!

- لماذا؟

- لأنني رأيت فتيات كثيرات من صديقاتي وقعن في الحب من قبل وعانين كثيراً، وتحطمت قلوبهن، وعشن معذبات، ولم يجدن مَنْ يسبر أغوار قلوبهن!

لقد صُدمتُ من وجهة نظرها وسألتها مستنكراً:

- ألهذه الدرجة الحب ضار بالبشر!

- مثل التدخين بالضبط!

قالتها وضحكنا سوياً، ثم قالت بجدية:

- الحب مُحطم للقلوب لأنه دائماً وأبداً نهايته الفراق!

ثم حدجتني وسألتني:

- هل وَقَعْتَ بالحب من ذي قبل؟

- أنا! لا... لم أقع ولن أقع! فأنا مازلت طالباً أدرس وأمامي سنين حتى أتخرج وأفكر بعدها في العمل ثم بالزواج؛ لذلك سأعمل بنصيحتك العقلانية.

وانفجرنا ضاحكين، فمَدَدْتُ كفي لها فضَرَبَتْ بكفها على كفي في حركة تلقائية مصاحبة لمزحتنا، ولما تَوَقَفَتْ راحة كفها فوق راحة كفي؛ سَرَتْ بجسمي كهرباء لذيذة؛ انقبض لها قلبي وتَنَاطَحَتْ خفقاته، وساد بيننا الصمت. شَرَدَتْ عيناي بعينيها وكأنهما يتحدثان مع بعضهما بلغة خاصة، تَشَابَكَتْ أناملي بأناملها لا إرادياً، وبدتا كعاشقان يتعانقان بشغف ولهفة.

كنا في عالم من الخيال ... هل قُلْتُ خيال؟ أجل؛ بل أجمل من الخيال؛ إحساس بالطمأنينة والدفء كنت أشعر به لأول مرة، ولم أكن أفقه أنه... الحب!

حتى إيمان أيضاً لاحَظْتُ أنها كانت تشعر بنفس ما أشعر به من سعادة ودعة وكهرباء، قال لي قلبي لحظتها:

– إنه الحب!

أجل؛ لقد كان الحب، ولكني كنت أَجْهَلُ لغة القلوب، فلم أدرك كُنْهُه وقتذاك!

نادىٰ علينا عز؛ أَفَقْنَا من غفوتنا هذه، وَعُدْنَا إلى واقعنا من جديد.

***

تقابَلنا أكثر من مرة بعد ذلك وكانت تلازمنا نفس الأحاسيس الجميلة مجهولة المصدر. انتهت الزيارة، والله أعلم هل كنت سأراها ثانية أم لا؟ رحلتُ إلى القاهرة فاقداً لشيء ما، إحساس ما، شخص ما!

تواترت الأيام، وذات مرة اِتَّصَلَ بي عز، قال:

– هناك شخص يريد أن يكلمك ليطمئن عليك!

خفقَ قلبي، عندها عَرَفْتُ أنها إيمان فلا أحد يعرفني عنده غيرها، قالت بلهفة:

– شعبان؛ اِشتَقتُ لَكْ!

ثم صَمَتَتْ وكأنها ندمت على نطقها، قلت:

– ليس أكثر مني صدقيني؟

وَلَجَتْ في وصلة بكاء، وأعْطَتْ الهاتف إلى عز، تساءلتُ: مالذي قلته آنفًا؟ ولم أجد ثمة إجابة؛ لأنه خَرَجَ رغماً عني، لأنه خَرَجَ من قلب صادق، وكان لابد له أن يخرج مهما حاولت كَبْحَ جماحه؛ فصلاحية تخزينه بداخل القلب انتهت! قال عز:

– إن حالها تغير يا صديقي! باتت تتحدث عنك كثيراً، ومشغولة بك أكثر، أنا أخشى أن تكون قد وَقَعَتْ في حبك!

عندها صُعِقْتُ متسائلا: كيَّفَ وَقَعَت في حبي؟ هي تكره الحب! ولكني تَبَيَّنْتُ فيما بعد بأن الحب جان؛ يَتَلَبَّسُ القلوب دون أن نشعر به! قلت لعز:

– يا صديقي أَنْتَ تعرف أنني متى أحببتُ فتاة اِرْتَبطْتُ بها، وأنا مازلتُ طالباً كما تعرف، أمامي سنين حتى التخرج؛ ومن ثم العمل وتكوين نفسي، ثم التفكير بالحب والزواج.

– أي تفكير يا صديقي؟ الحب كالموت دائماً ما يأتي فجأة دون أيما استعدادات.

قلتُ له بعد لحظات تفكير:

– اعطها رقم هاتفي لتتصل بي، وأنا سأحاول أن أفهم ما يدور برأسها؟

ومن وقتها وصرنا نتحدث كل ليلة بالساعات على الهاتف.

***

عُدْتُ إلى الدراسة؛ تعرفْتُ إلى أصدقاء وصديقات جدد، أَصبَحتُ أكلم الكثير من الفتيات هاتفياً؛ فَتَضاءَلتْ حصة إيمان من المكالمات، بَيد أنني لا أشعر بالراحة والأمان والسعادة إلا عندما أسمع صوتها هي فقط!وقد كنتُ أحكي لها عنهن، وكانت تغضب، وأُسلوبها يتغير والبعيد لا يكترث؛ لقد كانت تغار علي وما كنت أدري!

تساءلتُ كثيراً: «لماذا أحادث الكثير من الفتيات غيرها، بَيد أنني لا أشعر بالدفء إلا معها؟» وكالعادة؛ لم أحصل على ثمة إجابة مفهومة من نفسي أو من قلبي، أو بالأحرى لم أفهم لغة قلبي!

ذات يوم أزمعت إيمان على القدوم إلى القاهرة:

– أريد أن أراك، سأذهبُ أنا وأختي لنَشتَرِ ملابس من سوق "العتبة" لابد أنه قريب منك، لذا فلترتِبْ لنا لقاء؟

كانت أمنيتها حينذاك، ولكني تثاقَلتُ الأمر وكنت مشغول عنها، قلت لها:

– إن شاء الله؛ فلتأتِ سالمة أولاً؟

واِتَّصلَتْ بي بعدما نَزَلَتْ القاهرة، ولكني شُغِلتُ عن الذهاب إلى لقائها، ومن بعدها وقد أُغلِقَ هاتفها لأسابيع، ولم أكن قد فهمتُ وقتها: أن عدم تحقيق أمنيتها سيغضبها أشد غضبة.

***

مرت الأيام؛ كان قلبي ينبهني، يحذرني، ينصحني، ولكن ما كنتُ أتقن لغة القلوب هذه بعد. ذات مرة أُعجِبتُ بفتاة زميلة لي، وشعرتُ أنني سأحبها، سَعِدْتُ وأخبَرتُ إيمان عنها؛ فغضبَتْ وثارت، ثم هدأت وقالت:

– وهل ستنتظرك تلك الفتاة حتى تتخرج وتعمل؟

أجبتها على مضض، قلت:

– لا أدري ولكنه بداية شعور، ربما لا يتطور!

ومرت الشهور؛ اكتشفتُ خلالها أن الفتاة التي أُعجبتُ بها شخصية ركيكة ليست لها معالم، وسرعان ماكرهتها وبعدتُ عنها وعن كل الفتيات.

كنا جالسين بمقهى ما، قال لي عز مُعقبًا على ماحدث:

– فتيات المدن يختلفن عن فتيات القرى؛ هناك فرق بين من يترعرعن بين الأبراج الخرسانية، وطرقاتها الضيِّقة المُظلمة، وعوادم السيارات، وبين من يترعرعن بين الحقول الخضراء، والبراح المُشمس: مثل إيمان.

قلتُ في نفسي: إيمان... أفتقِدها كثيراً وأتمنى أن أراها أمامي الآن!.

وقتذاك كان هاتفها مغلق، وقد كانت بيننا مكالمة أخيرة؛ كانت فيها جد حنونة، وجد رقيقة؛ شعرتُ حينئذ بأنها ستعترف لي بشيء ما، بمكنون ما؛ ولكن فجأةٌ انشغلتُ مع سائق السيارة التي كنت أستقلها، وفتاة كانت تقعد بجانبي، كانا يتحدثان معي في أمر الأجرة والنقدية، فشعَرَتْ هي بعدم اهتمام

مني، ولما سمعَتْ صوت الفتاة؛ دارت برأسها الشكوك وغضبَتْ بشدة، وأغلقَتْ الخط دون استئذاني، ومن بعدها ولم أعرف عنها شيئاً.

سألت عز:

– طمئني عن إيمان مابال هاتفها مغلق؟

– هي في زيارة لأقارب لها بقرية مجاورة وستعود قريباً إن شاء الله.

وفجأة سألني السؤال الذي لا يعرف إجابته سوى قلبي، قال:

– هل تحب إيمان؟

صمتُ وقتاً طويلاً، سافرتُ لها فيه بخيالي؛ لأطمئن عليها ولأتأملها ولأقَبِّل جبينها وألمس يديها، وانقبَضَ قلبي وزادت دقاته، وبدأت أفقه لغة القلوب. قال لي قلبي بألم:

– اشتقتُ لها!

سألته بلهفة، قلت:

– هل تحبها؟

أجابنى في الحال:

– أنا أعشقها!

وعندها أجبتُ عز وقلت بوجع:

– قلبي يعشقها!

سالت دموع عيني شوقاً وحنيناً؛ فرحَ صديقي كثيراً، قال:

– قل لها ماقلته لي حالاً مؤكد أنها ستفرَحْ به كثيراً، وأنا سأفرح بكما؟

كنت أتمنَ ذلك، ولكن؛ أنا اكتشفتُ تواً أنني مغرم بها؛ بيد أنني مازلت أدرس: هل ستنتظرني خمس سنوات؟ مستحيل! هل سأستطيع أن أعيش بدونها طيلة هذه السنين؟ مستحيل! كيَّفَ سأتزوجها وأنا لا أملك شيئاً؟ مستحيل! هل سيوافق أهلها على طالب مفلس؟ مستحيل! إِذَاً؛ لقد عشقت المستحيل!

قلتُ:

– ولكني لستُ...

قاطعني عز، وقال لي كلمات تشبهني:

– ها أنت ذا تنزوي عالقاً بإحدى زوايا مستطيل الحياة بعد أن مللت، لماذا لم تتحرك نحو أي منحنى مفتوح؟ كيف لك أن تعشق اللف والدوران بداخل دوائر الحياة المغلقة؟ دائماً تبدأ من نقطة، وتدور حتى تتصبب عرقاً وتعود لنفس نقطة البداية دون أن تدرك. مثلثات كثيرة بحياتك تريد ولوجها، ولكن ليس هناك ثمة باب مفتوح، جميع الأبواب موصدة، مفاتيحها في مربع ما داخل قلبك، ولكي تعثر عليها؛ حاول التخلص من

الأشياء العالقة بداخلك، والأشياء منتهية الصلاحية، والأشياء المكررة، والشوائب الخفية المدرجة بدفاترك، حتى يتسنى لك البحث بتروي، وبعدها قم بعملية إعادة توازنك، وضبِطْ زواياك، ثم انْظُر في قلبك بصدق، ستجد المفاتيح، افتح بها الأبواب الموصدة، اخترق جميع المثلثات بشجاعة وهشِّم أضلاعها، انسل من دوائر التيه، وانسل من ثوبك القديم البالي، واغلِقْ جميع منحنياتك المفتوحة، انهض من زاوية ذلك المستطيل، قم بتلوينه قم بإعادة ترتيبه، افتح بجداره نافذة على العالم، تنفَسْ الحرية بملء صدرك، وعندها فقط ستشعر بتحسن ما.

***

بعد أيام أُتيحَ الاتصال إلى هاتف حبيبتي، سعدنا كثيراً أنا وقلبي؛ كأننا أطفال صغار فرحوا بعودة أمهم، ولم لا؟ فأنا مذ أن عشقتُ؛ عاد قلبي كقلب طفل، وعاد عقلي كعقل طفل، وأصبحَ جسدي هو العقبة الوحيدة التي تظهرني أمام الناس يافعاً.

قررتُ أن أعترف لها بحبي؛ الاعتراف أصبح شغلي الشاغل، أما ما سيحدث بعد ذلك؛ فسأحارب الدنيا من أجل أن نصبح تحت سقف واحد معاً!

– أحبكِ يا إيمان، بل أعشقكِ؟

وكشفتُ لها أخيراً عن مكنون القلب من عشق لها، وتمنيتُ أن أعيش في كنف حبها إلى الأبد، ولكن جاءت الرياح بما لا تشتهي السفن، صرخَتْ بي غاضبة، قالت:

– أنَا لا أحبك... أَنْتَ أخ لا أكثر! وقد فهمت كل شيء بطريقة خاطئة... هذا كل مافي الأمر!

قلت لها منهاراً:

– أنا أحبكِ، وأعرف أنكِ تحبينني؟ ومهما داريتي حبكِ؛ لن أكرهكِ ولن أتركَكِ أبداً، وسآتي إليكِ في عقر داركِ لأطلب منكِ السماح على مافات وبدء صفحة جديدة سعيدة، وأقولها لكِ وللجميع؛ أنكِ حبيبتي!

وما كان ردها إلا أنها قالت بحزم:

– لو كنت آخر رجل بالكون؛ لن أتزوجك! وسأحرجُك أن أتيت وستعد أدراجك مهاناً!

الحقيقة؛ قُصِفَتْ جبهتي وانتهيت؛ أُغلِقَ هاتفها إلى الأبد، ولما سألت عز عنها، قال:

– لقد هجروا القرية بلا عودة؛ ولا أدري أين ذهبوا!

أُدْمَعَتْ عيناي، قلتُ في نفسي: لقد قتلني الشوق إليها وما عوقب على جريمته! ووجدتني أُنشِد إلى طيفها خواطري:

اكبحي الدمع كما كبحته   ولجمي الصرخات.

قولي أنكِ سعيدة في بعدي،   واصطنعي البسمات.

اخشي على ماء وجهكِ من التجمد   ودثري قلبك بالآهات.

البسي قناع الضحية كلما اشتقتِ   كلما سحقتكِ الذكريات.

احرمي قلبكِ من حباً أحياه   بعدما كان رفاة في رقاد الأموات.

التحفي رداء الحور وامرقي   وهنيئًا لكِ وحدكِ الجنات.

ولكن تذكري أنني أحبكِ   وانا من دعوت لكِ بالفرحات!

وكيف تكون الجنة لذة وأنتِ وحيدة   تقاسين من الحب ويلات؟!

***

بعد مرور ثلاثة أعوام مفعمات بالآلام؛ دق هاتفي، ودق قلبي، قلت:

- انتظر ياقلبي لا ترهقني فهناك متصل ما!

قال لي:

- إنها هي!

- مَنْ هي؟

- إيمان!

- حقاً... سأرد حالاً.

وفتحتُ الخط، قلت:

- السلام عليكم؟

ولكن لا أحد يجيب! وفجأة نَطَقَتْ بحياء، قالت:

- هل هذا رقم "أميرة" من فضلك؟

يا الله إنها هي بالفعل! ولكن ماذا أقول لها؟ سأجيب، قلت:

- بلى معكِ "أميرة"... أقصد أنا أخ لأميرة، أجل أنا أخ لأميرة، ولكنها ليست موجودة حالياً!

ضَحِكَتْ، وقد كنت محتاج لأسمع تلك الضحكة لتلتئم بعض من جراح القلب، وتنتشي الروحِ جرعة تقوية لمواصلة الحياة، قلت:

- مَنْ حضرتك؟

- أنا صديقتها بالعمل، أين ذَهَبَتْ؟

- هي بالخارجِ... بالخارجِ!

- طيب! عندما تعود أرجوك أبلغها أن تتصل بي؟

- إن شاء الله!

- السلام عليكم؟

لقد أغلقَتْ الخط! لم نتحدث بعد، لم أطمئن عليها! لماذا لم تقل أنها هي؟ لماذا؟ كنت أريد أن أقول لها:

كلانا خسر صدقيني مامِنا مِنتصر ؟

كلانا ذاق ويلات سذاجته كلانا الدمع على خده انهمر.

كلانا بات ليله بلاقمر، والشمس خاصمته والشوق بصدره يستعر.

كلانا يعرف أنه مخُطيء كلانا لعودة الآخر ينتظر.

كلانا شحب وجهينا وباتت ملامحنا في خطر.

كلانا ماعاد يدفئه، سوى جمر الفراق وأنات قلب انكسر.

كلانا زهُد الدنيا، وفي الآخر هام وذاب واندثر.

كلانا خسر؛ عودي أم أعود أنا وليصبح كلانا مُنتصر ؟

***

وقتذاك؛ حاولتُ معاودة الاتصال بها، ولكن وجدتُ الخط قد أُغلق! سألت قلبي، قلت:

– قلبي... هات ما عندك؟

– قلت لك أنها تحبك حتى النخاع، وكلما اشتاقَتْ إليك سألت عن صديقة من صديقاتها ولكن من خط جديد.

إيمان ٢

يا من أحببتك حتى عُميت عن رجال الكون، يا من عشقتُ طيبتك حتى ظننتك ملاكاً، يا من تهتُ في أزقة قلبك حتى ضللتُ الطريق، يا من غرقتُ في بحر عينيك حتى كرهتُ النجاة، يا من ذبتُ في نسمات عبيرك حتى كفرتُ بالربيع؛ قل لي: مَنْ أَنْتَ؟

مَنْ أَنْتَ لتجعلني حتى وأنا بعيدة عنك؛ مجبولة على متابعتك، وتحري أخبارك، والاطمئنان عليك، وكأني تركتُكَ لأتفرغ إليك!

كلما أدماني الحنين إليك؛ ابتعتُ بطاقة هاتف جديدة ؛ لأتصل بك وأسمعُ صوتك وأغلقُ الهاتف بوجهك بعد أن أطمئن عليك، أو أسأل عن أي اسم لأتمطقُ بعض من الأمان بسماع أنفاسك، لأتدثر لحظات بدفئك، وبعدها أحتفظُ بالبطاقة بين مئات من أوراقي وكراساتي. بين أوراق لم أنقش عليها سوى اسمك، ولم أرسم عليها سوى وجهك، وأكثر كلمة تمنيتُ أن أقولها لك؛ كتبتها هنا بتلك الأوراق؛ لأني عجزتُ أن أقولها لك بلساني؛ أحبك... كتبتها مئات المرات على سطر، وانتظرت ردك على سطر آخر، وفي كل مرة لا أجد منك ثمة رد! في كل ورقة؛ أحبك، وسطرك فارغ، في كل ورقة؛ أحبك وجوابك لا يظهر، في كل ورقة أحبك؛ ولا أجدك!

وها أنذا الآن وبعد سنين؛ أكتبُ قصتي معك، على نفس الأوراق، بجانب اسمك، وبجانب "أحبك".

أكتبُ عنك إليك، أكتبُ عنك وعني لأسترح من عذابي، أكتبُ عنك كي أخفف من فوق قلبي أحماله، أكتبُ عنك لربما لتخليد ذكراك ولكن... هنا بين أوراقي.

صدقني يا حبيب؛ ما أكتبُ عنك سوى محاولة لمحاولة المحاولة في نسيانك، ولكن لا أدري؛ لماذا لا أنساك!

كلما كَتَبْتُ عنك؛ تعلقتُ بك أكثر، كلما كتبتُ عنك؛ تغلغلتَ فيَّ أكثر، كلما كتبتُ عنك؛ تدحرجتُ صوب أحضانك أكثر، كلما كتبتُ عنك؛ فُقدت في غابات حنيني إليك، كلما كتبتُ عنك؛ شعرت بأني قتلتُك. قتلتُك وقتما رَحَلَتْ قافلتي عن مدينتُك؛ قتلتُك وقتما انسلتُ من واقعك لألج في خيالك.

الحقيقة يا حبيب؛ لم نعد أحياء، بتنا مجرد حروف، مجرد أطياف وجوه، مجرد بريق دمعات، مجرد ذكرى صدئة، مجرد قلبان منقوشان على الأوراق؛ قلبان ينسل منهما سهم الحب بتأن، ولا أحد يكترث لدمائهما المنهمرة سدى؛ قلبان اختارا الفراق رغماً عنهما، قلبان كان الله في عونيهما.

حبيبي؛ برغم محاولاتك الحثيثة في البحث عني، ولإيصال رسائل قلبك لقلبي، وكلما عثرت عليّ هربت منك؛ لا زلت أحبك! وكلما فكرت بالعودة إليك؛ خشيت من فراق آخر يكن نهايتي الحقيقية؛ في الحقيقة أتمنى

الاقتراب، ولكن إن اقتربت منك؛ استسلمتُ لك، وأسلمتك روحي وقلبي؛ وإن تركتني لحظتها فسأموت؛ لأن روحي وقلبي معك! لذا دعنا متباعدين، فعذابي الآن أهون بكثير من عذابي إن عدتُ لك ثم تلاشيت أَنْتَ!

هل تعرف؟ لازلت أذكر لحظة رؤيتك، حينما بزغت أمامي كشمس طال تحرُّق ليلي لشروقها، رحت تتأملني وأتأملك، حسبت عيناك لج فكشفت عن ساقي، وغرقتُ في سوادهما مذّاك حتى الآن ولم أنتشل؛ قامتك المتوسطة، جسمك الممتلئ، جبهتك العريضة، انفك المتوسط، ابتسامتك الساحرة، شاربك الأسود، لحيتك النابتة، عيناك السوداوان الواسعتان. شفتاك اللتان كانتا تتمتمان باسمي عندما عرفك بي أخي "عز" وكأنما وجدت ضالتك أمام بيت صديقك الذي أتيت إليه من بلد بعيد؛ كنت أمام الباب، وكنت أنا خارجة منه، فدخلتُ قلبك، ودخلتْ أَنْتَ الباب، ليتني ما دخلتُ البيت، ولا القلب، وليتك ما أتيت ودخلتْ البيت والقلب.

ليلتئذ؛ شردتُ فيك طوال ليلي، وكنتُ أراقبُ البيت من بعيدٍ، لعلي أرى طيفك ثانية، ورأيتُكْ بالشرفة فهربت منك! وقابلتُك في الحقول الخضراء، فأينعَت حقولي، سلمتُ عليك، قعدنا، تمازحنا، سألتني عن الحب، فأجبتُك:

–لن أحب!

وسالتني:

– هل أحببتِ؟

فأجبتك:

–لم أحب!

ولكن عيناي قالتها لك صريحة، لما حضَنْت يدي بغير قصد منك، وبقصد من قلبك؛ فزلزلتْ حصون قلبي ودمرت أسواره، وتربعتْ داخله، ونبض بحبك ولايزال ينبضُ حتى الآن.

انتهت أجازتك ورحلتْ، ورحلَ معك جزء كبير مني، ليتني رحلتُ معك، وليتك ما أتيت، وليتك ما رحلتْ؛ بكيتُ كثيراً من شوقي إليك، بدأنا نتواصل عبر الهاتف، أولعتُ بحبك أكثر، وأَنْتَ ما شعرت بولهي!

وفي عامك الدراسي الثاني بالجامعة، نسيتني، وزادت فتياتك، شعرتُ بأني مجرد اسم في دفتر يعج بالصديقات، حاولت الاعتراف لك بحبي، ولكنك كنت في حالة يرثى لها، وخشيت أن تجرحني.

بعدها؛ أتيتُ إلى بلدك على أمل لقياك، ولم تعرنِ اهتماماً، كانت أمنية، وبجهلك جعلتها عقدة! هذا كل ما جعلني أكتم حبي بين جنباتي، وجعلني أكتفي بك خيالا، وأتمناك واقعاً، وأموت من شوقي بلا كفن ولا دفن، قبري هو جسدي، وعزاي لم آخذه من أحد!

تماديتْ في تهميشي، كأنك حاكم طاغية، وأنا الشعب، لذا رتبتُ لثورة، أترك فيها بلادك وأرحل؛ أعيشُ خارج حدود الوطن، خارج حدود الزمن، خارج حدود حبك؛ لتصبح حاكماً بلا شعب، لتُصبح جسداً بلا روح كما كنت أنا.

وجاءت لحظة اكتشافك بأني موجودة في حياتك، عندها جهزت قافلتي، وتهيأتُ إلى الرحيل، وقلتها لك:

- لو كنت آخر رجل بالكون؛ لن أتزوجك، وسأحرجك أن أتيت وستعد أدراجك مهاناً؟

قل لي: ما الجواب الذي كنت تنتظره مني؟ كرامتي لا زالت مجروحة من إهمالك لي سنوات، كنت أحبك وما انتبهتْ، ولما مللت أنَا انتبهت أَنْتَ، ياله من حظ عثر، وقتذاك؛ لزم عليَّ الرحيل لمداواة قلبي من تقاريح وتباريح خلفتها أنامل تجاهلك عليه.

ورحَلَتْ قافلتي؛ ولجَتْ بحر وجع هائج، ولكن؛ هل تعلم أنني مذّاك لا يمر أسبوعِ إلا ورأيتك بأحلامي سبع مرات؟

هل تعلم أن الوحدة والدموع والندم هم أصدقائي الأوفياء من بعدك؟

هل تعلم أن أيام الأعياد أقسى الأيام وأشدها حزناً؟

يحدثُ أن يخرجن صديقاتي مع أزواجهن، وخطابهن؛ يتنزهن، ويفرحن، وأنا بغرفتي، أتنزه معك في خيالي؛ لقد اكتشفتُ أنك كل أعيادي، وتيقنتُ أنني مادمتُ بعيدة عنك؛ فلن أشعر بمرور أي عيد؛ وسأنتظرك أَنْتَ يا عيدي. فبرغم تجاهلك لي، وقسوتي عليك، وبرغم أنك لا تعرف عنواناً لي؛ لازالت كلماتك ووعدك بأنك ستأتي إلي تزلزلُ أركان قلبي البالية، تمنحني أمل أتقوَّتُ به على دنياي.

يحدثُ أن أنظُر من فينة لأخرى من شباكي، أتفقدُ الطريق، أرقبُ الباب، أسرحُ بك، أتخيلك، أشتم رائحتك، أتحدثُ معك وتتحدث معي، أرتمي بحضنك فتقبلني قبلة تمنحني جناحين، أغمض عيناي، وأطير فأجدك تنتظرني في أحلامي، تبتسم لي، تسألني:

- لِمَ تأخرتِ؟

فأجيبك بابتسامة:

- أَنْتَ مَنْ أخرتني!

وهاأنذا أرتدي فستاني الأبيض، وأَنْتَ بدلتك البيضاء؛ وتأخذني من يداي، ونركضُ بين المروجِ الخضراء غير آبهين هل هو حلم أم حقيقة؟ لنتوقف أمام قصر منيف من الذهب والفضة يلمعُ بين المروجِ، فأسألك:

- لِمَنْ القصر؟

- لك أَنْتِ محبوبتي.

أسعد كثيراً، وتتناثر ضحكاتي بالفضاء كنجمات، وأحضنك وأُقَبِّلَكْ، وفجأة نجدُ أنفسنا داخل القصر، ثم تختفي أَنْتَ، وأصعقُ أنا من القلق عليك، ومن تساؤلاتي عن سبب اختفائك ومكانه؟ وفجأة أسمعُ صوتك عن كثب تبكي، تنتحب، فأفزع، وأَصْرُخُ:

- أين أَنْتَ حبيبي؟ لماذا تنتحب؟عُدْ أرجوك... عُدْ؟

وفجأة؛ أجدُ نفسي مستيقظةً، ولكن صدى نحيبك مايزال يلازمني، يأتيني من كل صوب واتجاه..

أتساءلُ: ذنبي، أم ذنبك؟

لقد وصلتُ إلى مرحلة اللامبالاه؛ لم تعد لدي أشياء تشجعني على مواصلة العيش من أجلها؛ سوى أمي المسكينة التي لطالما بكيتُ وأنا مغمورة بين أحضانها، بعد كل اتصال بيننا؛ حينما كنت أبكي شوقاً لك، وضجرةً من إهمالك لي، وخوفاً من بعدك عني، ومن مستقبلنا الغائم، وما كنت أدري أن الفراق سيكن قراري الذي سأتخذه بنفسي! سامحك الله يا قلبي ضيعتني... سامحك الله!

أتساءل دوماً، وأعاتب نفسي وأبارزها: أنا لم أنتظر حتى لأسمع أعذاره، أو أسامحه، لم أعترف له بحبي، لماذا حكمتُ على نفسي بالحزن؟ كان لابد من الرجوعِ إليه، كان لابد من استكمال قصتنا التى انتهت قبل أن تبدأ؟!

ولكن دونما فائدة، فلاتزال كرامتي متذمرة، حتى وأنا أكتبُ قصتنا الآن، لا أدري كيَّفَ أنهيها، أم أتركها بلا نهاية على أمل عودتك لتنهيها بنفسك؟ أم ماذا أكتب؟ سأترك قلمي فوق أوراقي حتى أجدُ نهاية القصة، أو نهايتي.

اِنْتَظِرْ؟ لا لن أتركها، ومايزال رقم هاتفك محفور بعقلي، اسمع؛ أَنْتَ لي! أَنْتَ ملكي، فكيَّفَ أتخفى لأطمئن عليك؟ لن أتخفى بعد اليوم، وقد قرَرتُ العودة

إليك، قررتُ الدفاع عن حبي، قررتُ التحلي بالشجاعة، فلن أنتظرُ حتى يبلى عمري في خوف ووحدة، أو مع رجل غيرك جسد بلا روح.

حتى مَنْ يتقدمون لخطبتي، وبعد أن أوافق عليهم، فجأة أجد نفسي أبكي وأرفضهم، وأعود لعزلتي وأعود لشرودي فيك، لم يعد لدي قدرة على تخيل رجلاً غيرك بين أحضاني ...

وها هي النهاية؛ سأتصلُ بك، ولإن سألتني:

-مَنْ أَنْتِ؟

لأجيبنك بذهو وأقول:

- حبيبتك.

مشهد ساخن

في ظلام تؤرقة الأشعة الملوّنة من لحظة لأخرى.

في خلجات دوَّامة موسيقية هادئة، صادحة من الجدران، تقشعر لها القلوب الرقيقة.

راح يتأمل الجُلوس!

كلهم سعداء؛ هكذا أعتقد!

كلهم مشدوهون، جاحظوا العيون.

كلهم يقطر من جبينه العرق، ولا يدري، أهو خَجلاً أم اشتهاءً أم تأثيرات المُناخ؟ إلى أقصى الحدود؛ كلهم مُستمتعون!

الرجال؛ يتلمظون ويتمنونها، كل يُسِرُ في نفسه«ليت شفتاي التي تلتقم شفتيها!» أو «ليتني أنا الذي تسكن بين أحضانه الآن تلك المُهرة الجامحة!»

حتى النساء، يغبِطنها، ويتمنين أن يحللنْ محلها، ويذقن قُبلة ذلك الوسيم، معشوق النساء، الذي تتفاخر الفتيات بوضع صوَّرِه على جدران غرفات

نومهن، أو يحلمن به أحلاماً تُشبع شبقهن، أو يُجاهرن سعيدات، بأنه فارس أحلامهن!

إلا هو؛ بدا مُتململاً في قعدته على الكرسي بالصف الأول، القريب من شاشة السينما الكبيرة، يتأمل ظلال ردود الأفعال على وجوه المُشاهدين من حوله؛ ضحكاتهم، امتعاضاتهم، خجلهم، بجاحتهم، يحاول قراءة ما تلوكه صدورهم، أو ما يحاول افتراض أنه يُلاك بصدورهم!

تارة؛ يتأمل الوجوه الشمعية، التي راحت تُطلى من حين لآخر بشتى الألوان، المُنعكسة من الشاشة عليهم، وتارة يرمقها بنظرة تتسلق تضاريها الشاهقة، وأجزاء جسدها العارية في خفاء وتوجس؛ أليس من حقه أن ينظر إلى جسمها؟ أليست حلاله؟ يتساءل خجلاً في أعماقه. تقعد هي، غير بعيدة عنه، يفصل بينهما ذلك الممُثل الوسيم، فارس أحلام الفتيات.

كانت تراقب نفسها على الشاشة، وبشاشة تقاسيم لا تُفارقها، وشغرة فم، وارتفاع حاجبين، وابتسامات من حين لآخر، تُرسلها بعشوائية، في كل الاتجاهات من حولها، بصُحبة نظرات لاترى إلى صورتها المُتحركة على الشاشة، أينما استدارت، وأينما حطَّتْ!

ويدها التي تسللت منذ قليل، وقد تعانقت بيد الوسيم بجوارها، مازالت قابضة على يده، وقد شكلتا سوياً ترمومتراً لقياس صدى التفاعل مع الشاشة، بتذبب الضغطات ما بين الشدة والوهن.

نادم هو، أشد الندم!

ولكن ليست تلك المرة الأولى التي يندم فيها، بل إنه في كل عرض خاص، لفيلم من أفلام زوجته: الممثلة الشهيرة؛ يشعر بالندم!

لماذا وافق منذ البداية؟ لماذا سمح لها بولوجِ تلك المهنة؟ كان لابد من زجرها، وإن أصَرتْ، كان لزاماً عليه تركها!

ذات مرة، منذ سنوات؛ شاهدها مُنتج شهير مصادفة بمركز تسوق بصحبة صديقاتها، ولمِا رأى من جمالها، ورشاقتها؛ أسَرّ لها بما ستجده من شهرة، وأموال، إن انضمت لفريقه من الممثلين والممثلات. أما زوجها فقد رفض في البداية، وعندما تركت له المنزل ليلة، وباتت في بيت والدها، فوجئت في الصباح، باتصال زوجها!

– تعالي لتَرين من في البيت!

صمتت قليلاً، ثم سألت:

– سيكون من؟

قال سريعاً:

– المُنتج السينمائي... كي تبدءا معاً اختبارات التمثيل؟

– أنا أعشقك... حالاً سأنبثق عندك ياحبيبي!

لم يقوَ على خِصامها؛ يتذكر ليلتها، أنهما لم يناما إلا صباحاً، من إرهاق ليلة الحب الساخنة! ويتذكر أيضاً أنها كانت آخر ليلة من هذا النوعِ، وما كان يحدث بينهما، بعد ذلك، كان مثل إعطاء جرعات شحيحة من الدواء المُر لمريض كي يظل مريضاً لا يبرأ؛ فقد صارت أناقتها ورشاقة جسدها شغلها الشاغل.

كان حبه لها لِجاماً، لَجم إرادته من أطرافها تلجيماً متيناً، لم يكتشف حتى الآن كيفية الخلاص من عُقدته. وبات ذلك اللجام، هو الذريعة القوية، التي يستطيع أن يُفحم بها أي ذرة غيرة، تُحاول أن تُبعث من أعماقه.

تمسك يد زميلها أمامه، متجاهلان وجوده، ومنذ متى تكترث لوجوده؟ وأيهما أحق بالغيرة، تلك القُبلة التي تخطتْ الدقيقة ولازالت مُستمرة أمام الجميع، وأجزاء جسدها العارية أسفل الملاءة، ووجودها أسفل الممثل الوسيم تارة وفوقه تارة أخرى _ أم أيديهما المتشابكة؟

تُرى ماذا يقول الناس عنه، دُبر كل عرض خاص لفيلم من أفلامها، حينما يقف كالأبله خلفها هي وزملائها، راسماً على وجهه قناع أحمر ضاحك، وإيماءات يُرسلها، ولا يعرف إلى من تصل؟

حتماً مايُقال هو يعرفه جيداً، وعاش سنيناً يكبحه كلما أحس به آتٍ من ظلمات أعماقه، وما يفتأ يزجر نفسه من وقت لآخر، ويقول لها ساخطاً:

من يرفض حبيبته؟

من يرفض الأموال؟

من يرفض المركز الاجتماعي؟

من يرفض النِعَم إلا مجنون؟

من يرفض هذا كله من أجل عادات وتقاليد بالية؟

وفجأة؛ يبتسم!

يتذكر ما حدث معه، في العرض الخاص، بالفيلم السابق.

كان يقف كعادته خلفهم –عقب العرض– وهم يصافحون جماهيرهم، ويلتقطون الصور معهم، ويوقعون لهم التذكارات، يُفرق الإيماءات والابتسامات، لأي ظل يمر من أمامه أو من خلفه، وفي لحظة سهو منه، سقطت يد بضة على كتفه، فنظر خلفه، وجدها امرأة في عقدها الخامس من العمر، قالت له بلهجة وقور:

– هل تسمح لي بأن ألتقط صورة معك؟

ابتسم مُتعجباً، مؤكد أن بالمرأة خُبال! هكذا فكر. ازدرد ريقه، وانتصب بجوارها، وعيونه تلمع ببريق موؤود، والتُقطتْ الصورة، ثم أعطته دفتر صغير مفتوح وقلم، وطلبت توقيعه!

وقع لها على مضض، ويده ترتعش، ورأسه يضج بالتساؤلات! كادت المرأة أن تبتعد عنه مُبتسمة، لولا أن استوقفها خجلاً، وسألها مُتردداً:

– لماذا لم تطلبين توقيعها هي... لماذا أنا؟

ابتسمت، ثم قالت اجابتها، وذابت أمام ناظريه بين الزحام، ولكن صداها راح يتردد في رأسه حتى اليوم:

– أنت المُمثل الحقيقي الذي يستحق التكريم.

لذّة السقوط

صوتي يتحوَّل لعندلة كلما مررتُ من أمام شقته؛ شعوري بأنه بالداخل، يستمع إليّ؛ يجعلني أثرثر بأي هذر:

– الجو بارد جدًا اليوم! لا أدري لماذا!

وأطيل وقفتنا أنا وأمي أو أنا وأختي أمام باب الشقّة لدقيقة؛ تمرّ عليّ كأنها يوم مُزدحم الأشغال...

– بارد لأننا بالشتاء يا أختى... ما خطبك!

حتى بعدما تزوّجتُ وتركتُ البيت؛ لا زلت أذكره! لاأزل أذكر رؤيته لأول مرّة؛ وجهه الخمري، شعره القصير المجعّد، جلبابه البسيط، وخفه الجلدي، لحيته النابتة وشاربه القصير. كنتُ عائدة من عملي بورشة الخياطة، صاعدة السلّم، أتمايل في عباءتي السوداء مُنهكة القوى، وجدته يُدخل أمتعته البسيطة إلى الشقّة. هو من سيسكن شقة الطابق الرابع، التي تسبق السطح حيث نسكن أنا واختي الصغرى، وأخي الأصغر ووالداي.

كان مُتعرِّقًا إثر مجهوده، والجو الحار، انتبه لمروري بجانبه فبادلني ابتسامة، ثم أفسح طريقًا لي بين أمتعته لأمُر، فبادلته الابتسامة مُلقية السلام، فأجابني بصوت متهدِّج:

الفهرست

- وعليكم السلام أختي.

ثم حَمَلَ أشياءه واختفي بالداخل؛ توقّفتُ لحظات أرقب الباب، ثم انتفضتُ لسذاجة فعلي مُكملة طريقي.

- أمي... لقد رأيتُ شابًا بالشقّة أسفلنا يدخل أمتعته!

كانت خارجة من المطبخ مُتعرّقة بثيابها الخفيفة:

- إنه شاب جنوبي أعزب، وهو من سيسكن بها!

- سألتها بعد لحظة صمت:

- ولِمَ يُسكن صاحب البيت أعزبًا بين عائلات!

- لربما يمر بضائقة ماليّة؛ ولم يجد سواه! غيِّري ثيابكِ والحقي بي إلى المطبخ، قبل عودة أبيكِ وأخوتك؟

تهالكتُ فوق الأريكة؛ شاردة في اللاشيء، لم أبدِّل ثيابي آنذاك، ولم ألحق بأمي. لم يكن بيني وما بين "الأعزب" سوى السلام؛ خجول هو كفتاة بكر. أنا البكر لستُ في خجله. لماذا لا يهتم بالكلام معي؟ أم أنه لا يفضِّل فتيات المدن! أهو تحقير لهن أم خجل منهن أم ماذا؟ تساءلتُ غير مرة ولم أجد الاجابة!

أُصادفه بطرقات الحي وأزقّته؛ وهو ذاهب إلى عمله الذي لا أعرفه مبكرًا، أو وهو عائد منه مساءً؛ فنتبادل النظرات، نظرات صامتة لا تتوانى عن الثرثرة، وكأنه يقول: أنت الفتاة التي تسكنين بالأعلى؛ أعرفك؟

أو:

– أنت جميلة أتمنى أن نتحدّث معًا ولكن...

أسأل عينيه: ولكن ماذا؟ ألديك ثمّة إجابة أيها الأعزب الجميل؟

لكن لا تجيب عيناه! تحين منه التفاتة لجسدي الممتليء قليلًا بالعباءة السوداء، ولبروز نهديّ، وربما ينظر أيضًا إلى مؤخرتي بعد ابتعادي عنه! لحظتها أعتقد بأن عيناه تصرخ إليّ:

– انت تمتلكين جسدًا مُثيرًا، أتمناه، وأحلم به أحلامًا شبقة؛ أِضاجعه في خيالي.

كلمات عيناه؛ كانت جريئة، وجميلة.

***

تمت خطبتي لزميل لي في ورشة الخياطة، بل هو معلمي الذي أعمل تحت إمرته منذ سنوات؛ لقد تشربتُ الصنعة على يديه، هو شاب طيب ويحبني، أما الأعزب فهو كالميِّت في برزخه المجهول؛ لا أدري أهو معذّب، أم مُنعّم؟ لا تصدر عنه أي انفعالات؛ جامد هو كالسماء؛ لا يَسقُط ذات مرة كسفًا على

أرضي! لم يحاول في مرة أن يتبادل أطراف الكلام معي بلسانه، بدلًا من عينيه.

في كل مرة يزورنا فيها خطيبي؛ أنزل معه ليلًا لأرافقه حتى باب البيت بالأسفل؛ وقبل أن ننزل؛ نقف أمام شقّة الأعزب؛ نتبادل الهمسات، ولمسات الأيدي، والأحضان والقبلات.

قبلات أحاول أن أجعلها تصدر ضجيجًا، علّه يسمع فيستفيق من رقاده، أو أصدر من فينة لفينة تأوهات أضع كل مالديّ من غنج بها. أحيانًا كثيرة؛ أتخيّل الأعزب هو خطيبي؛ وهو من يقبّلني ويحتضنني بين ذراعيه السمراوين المفتولين، وصدره العريض.

أفكّر؛ ربما يتنصّت إلينا من خلف الباب الخشبي الساكن، ربما يمارس الجنس من طرف واحد على أغنوجاتي! أو ربما نائمًا، أو ربما غير موجود أصلًا.

كأنه حُلم! أو لاشيء؛ يدخل شقته، يغلق الباب، ثم تنقطع جدرانه عن بث أي همسة أمل تدل بأن تلك الشقة فيها بشر. قلّ ما تبث جدران شقته وسقفها؛ أغان جنوبيّة كلها فرح ونوح، وأشد ما يميزها؛ المزمار والرَّباب؛ المزمار الصدّاح المُتجاهل لكل الآلات الموسيقية بجواره، والرَّباب التي تنوح من تجاهله إياها.

في يوم الجمعة؛ ننظِّف الشقّة ونرتِّبها، ثم أذهب لأحضر الإفطار: بابه ساكن! أحاول عبثًا أن أؤخِّر نفسي في المطعم لعليّ أراه حينما يأتي؛ ولكنه لا يأتي. أعود، نفطر جميعًا، ثم أرقب الطريق من الشباك وبيدي كوب الشاي الذي ملَّ مثلي من الانتظار؛ فلا يخرج: كيف يعيش إذن، ألا يأكل مثلنا!

تزوجتُ بعد سكنته في البيت بعامين في شقّة بعيدة عن الحي، وأنجبتُ فتاة. أعيش حياتي مثل أي أسرة، خصام لأيّام، ووئام لشهور، ولكن كثر ما تخيّلتُ الأعزب مكان زوجي وعلى سريره؛ في حلم منام أو حلم يقظة. أغمض عيناي، وتلتحفني لذّة مشوبة بدوار، وكأني أسقط من السماء، فيتلقفني فوق ساعديه القويين، يقلِّبني فوق صدره العريض المُلتهب كرمال الصحراء. كشاة عارية من جلدها؛ أنضج فوق جمره ببطء. أتركه يعبث بكل مافي قافلتي التائهة، ليعيدني في النهاية إلى هودجي المزخرف؛ أبهى من ذي قبل!

كلما أتيتُ في زيارة لأمي؛ وما إن دخلت البيت، إلا وتساقطتْ دقّات قلبي كجبل صخور خرّ من علٍ! حنين غامض يسحلني لرؤيته، ولسماع صمت جدرانه، أو مزمار أغانية، أو الرثاء لأنين ربَّابه. وأخشى أن يكن قد غادر بلا رجعة، فمجرَّد احساسي بوجوده في الداخل يريحني كثيرًا. فقلّ ما أصادفه بمدخل البيت أو أمام شقّته، ونتبادل ذات النظرات الثرثارة، التي باتت –بعد زواجي– تقول لي: ليتني أنا الأب لابنتك؟

أو:

– ليتني أنا من أبات في أحضانك كل ليلة.

***

قبل زواجي؛ كثر ما تمنيت أن أطرق بابه، وما إن يفتح لي؛ إلا وأرتمي بين أحضانه وأقبِّله، وأشهق بالبكاء. واتتني أكثر من فرصة؛ فقد كان ينسى أحيانًا مفتاح شقّته بالثقب من الخارج، أو ينساه فوق سور السُلّم القصير، ويتفق بأني عائدة من العمل، فأطرق بابه فيفتح:

– مفتاحك... لقد نسيته بالخارج؟

أقولها له متعرِّقة؛ فيبتسم فأبادله الابتسامة، وتقول لي عيناه:

– أدخلي فأنا مُحتاج إليكِ؟

ولكن لسانه ينطق بشيء آخر:

– أشكرك أختي... تصبحين على خير؟

فكنتُ أواصل آنذاك صعود درجات السلم القليلة المتبقيّة متكدِّرة، ساخطة. في إحدى ليلات الشتاء الأخير قبل زواجي؛ كنتُ أقف بصحبة خطيبي، أمام شقّة الأعزب كالعادة، وقد اقترب ميعاد زواجنا، وذاك ما جعلنا لا نترك خلوة قصيرة الأمد إلا واستهلكناها ألذ استهلاك: قبلات، أحضان، لمسات شبقة؛ كنّا نتجهّز للآت. أمام شقّة الأعزب؛ كنّا سكارى من شدة الانتشاء. في تلك

اللحظة؛ لم أكن أتخيّل الأعزب مكان خطيبي، ولكني كنت في اللذّة من نهاية.

فجأة؛ وجدتُ الأعزب يخرج من باب شقته ويقف صامتًا يشاهدنا، وعلى وجهه الذي استحال إلى أحمر لا يعتوره شيء _سيماء غضب شديدة مُرعبة.

لا أدري لماذا شعرتُ لوهلة أنني امرأة خائنة، والأعزب هو زوجي الذي ضبطني للتو متلبِّسة بالخيانة مع رجل غيره! عندئذ انقبض قلبي وغار في أعماق جسدي المرتجف؛ ومادتْ الأرض بي؛ فانخلعتُ من حضن خطيبي فزعة، فنزل خطيبي إلى الأسفل وكأن شيئًا لم يكن، وهرولتُ أنا إلى الأعلى.

لم تهدأ انقباضات قلبي، وتسكن رجفات جسدي، وتتزن بي الأرض؛ إلا بتساقط زخّات دموعي وأنا أهرب من نظراته التي لم أفهم حتى الآن؛ ماذا كانت تقول لي آنذاك؟

سراب أغسطس

بعد انقضاء شهر مِنْ المسير، وَصَلَ إلى مَدِينةِ الأكْواخِ، دَخَلَ الكوخ المُشَيَّدُ مِنْ خَشَبِ وَصَفِيح، كان متعباً فَانْطَرَحَ أرضاً، شَعَرَ بخَدَر يَلْتَحِفُ سائر جسده، أَحَسَ بأنه مريض، راحت ذكرياته تَتَخَبَط بجدران عقله، راح يَسْتَعِيدُ كل ماحَدَثَ له، قال في نفسه: ليتني وُلِدّتَ كلباً ضئيل الحجم بشعر أبيض طويل وناعم، لكنت أَسْتَقِلُ السيارات وأَطُلُ مِنْ نوافذها سعيداً، لكن مَنْ منا يختار مصيره؟وُلِدّتَ كَلبْاً بَلَدِيَّاً، أسوداً قبيحاً، وبعينان حمراوتان كالعفريت، وبذّنَبُ أبتر مقزز.

***

قبل ذلك بعدة شهور؛ كان جرواً وله أربعة أخوة جراء؛ كانوا يتزاحمون على ثُدِيٌّ أمه، فكان يَقْتَرِبُ ليرضع مثلهم، فيقول له أحدهم:

– لن تشاركنا حلمات أمنا أيها الشيطان الغريب؟

فيرد محزوناً:

– أنا أخاكم!

فيزعق عليه آخر ساخراً:

– أَنْتَ ابن حرام!

وينفجروا ضاحكين وسط صمت أُمِهِم!

كانوا جميعاً بيض الألوان، والأم أيضاً، لذا تمَلَكَهم إحساس بشذوذه وغرابته في أسرتهم، ولكن الأم كانت حَنُونةً عليه؛ ومتى يشبع أخوته مِنْ الرضاعة؛ تأخذه بعيداً عنهم وتُرضِعهُ حتى يَشْبَعُ، وكانت تَلعَقهُ بأناة وتَشمهُ بعطف.

مرت الأيام وزادت مِنْ عزلته. وذات يوم عاد إلى الوهدة التى تَسْكُنُ بها عائلته في أطراف المدينة حاملاً بين أنيابه دجاجة ثمينة نافقة، وكان أخوته يتهارشون ويتلاعبون غير بعيد.

خَرَجَتْ أمه إليه، فوقف أمامها، تفحصته بعطف، فألقى الدجاجة أرضاً، وفجأة؛ اِنْقَضَ عَليّه اِخوتِه، كانوا أقوى منه بدنياً، خطفوا الدجاجة مِنْ أمامه، وأوسعوه عضاً وهبشاً وسط لا مبالاته وعبوسه، وصَرَخَ به أحدهم:

– أُتْرُكْها يابن الحرام إنها مِنْ حقنا؟

وقال آخر:

– مثلك لا يأكل الدجاج ياحقير، آخرك الخبز اليابس العفن ياعفريت!

فما كان منه إلا أن فذ عنهم غير بعيد، وأَقْعَى فوق جدار متهدم وراح يتأمل المدينة البعيدة الراقدة كجثث كلاب نافقة، خلف سراب أغسطس المتوهِّج؛ نادباً حاله السيء وساخطاً على حظه العثر.

– خُذْ هذه؟

الفهرست

قالتها أمه بعدما جاءت مِنْ خلفه، وألقت أمامه قطعة مِنْ الدجاجة كانت قد خَلَصتْها مِنْ بين أنياب أخوته بالقوة، قال بِتَجَهُم دونما أن يَلْتَفِتُ إليها:

- عُفْتُها يا أم!

- لِمَاذا يا ولدي؟

اِلْتَفَتَ لأمه، رَمَقَها بعينان لامعتان توشكان على الطفر بدمعهما، ثم عاد بنظره إلى المدينة النافقة، قال بلهجة شاردة:

- حان موعد الرحيل!

أَقْعَت أمه أرضاً، أَدْمَعَت عيناها، قالت بصوت متهدج:

- أَتَتْرُكَني؟

نَهَضَ وقَفَزَ مِنْ فوق الجدار، اِقْتَرَبَ مِنْ أمه؛ لَعَقَ رقبتها و خَطْمُها، وحَكَّ جلده بجلدها، وأَدْمَعَت عيناه. نَهَضَت أمه ولَعَقَت دمعاته و خَطْمُه، تَفَلَتَ مِنْها وقفز فوق الجدار، اِلْتَفَتَ إليها؛ وجدها تتأمله بحزن، نَظَرَ في عمق عينها فرأى انعكاس صورته ضئيل جداً؛ تَأَكَدَ بأنه قد اِتَخَذَ القرار الصحيح!

أطْرَقَت أمه رأسها أرضاً، ولما رفعته كان قد توارى خلف دموعها وخلف السراب المتوهج.

تواترت الأيام، والكلب يتنقل بين المدن ومقالب القمامة، وبداخله حنين لأمه، وللوهدة التي ولِدَ فيها، ولإخوته رغم مكرهم به، لكن الجفاء وقلة

الحيلة جعلته لا يُفَكِرُ بالعودة أبداً، يجوع أياماً ويأكل أياماً وظل على هذا المنوال شهراً.

واستقر به الحال في مدينة غريبة؛ راح يتجول بطرقاتها ليلاً ونهاراً، ويَنْبُشُ صناديق قمامتها ويَشَمُ بأكوامها.

في الصباح الباكر؛ أَقْعَى الكلب على قارعة أحدى طرقات المدينة الواسعة، بجانب كومة قمامة، وراح يتأمل سكان المدينة المهلهلي الثياب، المكفهري الوجوه، المنكوشي الشعر؛ حينئذ شعر بالندم على تركه لمدينته؛ حيث الدجاج النافق والعظم الملبس باللحم وقطع الدهن والأمعاء، قال في نفسه: ليتني لم أرحل؛ قضيتُ أسبوعاً بتلك المدينة؛ ما صادفتُ أحداً يرمي عظمةً أو ساق دجاجة، لا يوجد سوى الفول وأم الفلافل، وما صادفتُ كلباً ضالاً بطرقاتها... ياله من حظ عثر.

وكان كلما مر أحداً مِنْ سكان المدينة نظر إلى الكلب باستغراب وابتسامة تعجب!

بعد ساعة اِقْتَرَبَ من الكلب شابًا بالعقد الثالث مِنْ العمر، هزيل الجسم، مهلهل الثياب، منكوش الشعر؛ ماسكاً بيده كيساً أسوداً، وقَرفَصَ أمامه، وتعجب مِنْ ثباته وعدم نفوره منه، مَدَّ الشاب يده ورَبَّتَ على رقبته ومسّد شعره، فاستكان الكلب وأَغَمَضَ عينيه وأن أنيناً مسموعاً، قال الشاب:

– مسكين أيها الكلب، لقد رمَتْك الأقدار على مدينة الأكواخ؛ والله لو طال بك الوقت هنا لهَلَكَت جوعاً، أو ذبحوك أهل المدينة وأكلوك.

أَدْخَلَ الشاب يده بالكيس وأَخْرَجَ رغيفاً بجوفه الدهن والبصل المطبوخين، واقتسم الرغيف مع الكلب، وراح يتأمله وهو يأكل بنهم مصدراً أنات مشبعة بالوجع، وإفراز لعابه لا يتوقف. أعَادَ نصف الرغيف الآخر إلى الكيس، ثم رَبَّتَ على ظهر الكلب، ونهض موشكة عيناه على ذرف دمعاتها، ومشى بعيداً متثاقل الخطى يَخْتَلِسُ النظر إلى الكلب مِنْ فينة لأخرى، فيجده لم يحوِّل بصره عنه، فعاد سريعاً إليه وأَخْرَجَ نصف الرغيف الآخر، وأعطاه إلى الكلب مبتسماً، وراح يتأمله:

– كُلْ ياصديقي كُلْ؟ حالنا مِنْ بعضه، ومصائرنا واحدة؛ أنا أستطيع التصرف وجلب الطعام بأي طريقة، وأستطيع أن أصرخ وأقول جوعان، وأستطيع التحمل أيضاً، لكن أَنْتَ! أَنْتَ حيوان أعجم طيب لن يفهمك أولئك البشر!

بعدما أكل الكلب؛ وقف الشاب وأوعز إليه بأن ينهض ويتبعه، نهض الكلب ثم تبعه حتى وصلا إلى كوخ بأطراف المدينة يقطن به الشاب.

توقف الكلب يلهث أمام الكوخ متأملاً المكان القفر، فوجده أكواخاً وعششاً وخصوصاً متراصة بعشوائية، ولمح أبراجاً عاليةً لامعةً خلف مدينة الأكواخ هذه؛ تَطُلُ بشموخ مِنْ بعيد، فتعجب ولم يفهم ما كُنْهُ تلك الأبراج.

دخل الشاب مِنْ باب كوخه المغلق بستارة قماشية بالية، ثم خرج وبيده طست به ماء، ثم نظر إلى الكلب مُبتسماً:

– لابد أنك عطشان ياصديقي، اِشْرَبْ، هذا ماء الله الطهور.

ثم وضعه أمامه، وتربع أرضاً يشاهده فولَغ الكلب مِنْه حتى ارتوى، ثم قال:

– إنه ماء النيل المقدس ياصديقي، هل تعلم أن النيل نهر مِنْ أنهار الجنة؟

اقترب منه الكلب وتَمَسَحَ بجسده وأن أنات طويلة موجعة، فمَسدَ الشاب شعره بيديه واحتضنه:

– مِنْ اليوم أَنْتَ صديقي، سَنَقْتَسِم اللقمة والشربة معاً.

قال الكلب في نفسه: والله إنك أحن علي مِنْ أخوتي ومِنْ جنسي كله!

مَرَتْ بالطريق جوار الكوخ فتاة قصيرة القامة، تتمايل في جلباب أسود مرقَّع ملطخ بالأدران، وجسدها مجرد عظام تكسوها الثياب، لا تبين من سمك طبقات الأوساخ بوجهها سوى عينين واسعتين بارزتين من محجريهما، وشعرها جعد منكوش، تمسك بيدها جوال مهترىء مليء بفضلات أطعمة وخبز وزجاجات بلاستيكية فارغة.

نَظَرَتْ الفتاة إلى الشاب والكلب ثم تَوَقْفَتْ وإنْفَجَرَتْ ضاحكة، حَدَجَها الشاب، قالت:

– أَستُطْعِم نفسك أم ستطعمهُ؟

– أُغْرُبِي عن كوخي يا بلهاء؟

أشاحت بوجهها وتَابَعَتْ طريقها مُتَمْتِمَةً:

– أَقْطَعُ ذراعي إن لم تكن قد اَصْطَدْتَهُ لتذبحنه وتأكلنه لوحدك يا حمَّال الخراء!

وبعد تعاقب الأيام مع صديقه البشري؛ اسْتَرَدَّ الكلب عافيته، وأَصْبَحَ كَلباً ناضِجٌ، وكان الشاب يهتم به؛ يَقْتَسِمُ رزقه معه؛ يحضر له العظم والأمعاء وفضلات المطاعم مِنْ قمامة مدينة الأبراج، أو يشتري أجنحة الدجاج وأرجلها ويقوم بطهيها ويتقاسمانها معاً، ويُثَرثِرُ له كثيراً، ويبوح له عما يَعْتَلِجُ به صدره.

يعتقد الشاب أن الكلاب تفهم البشر لكنها لا تنطق بلغتها، تحسُ بآلام البشر ولكنها لا تستطيع النطق بالمواساة. لقد كان الشاب وحيداً مثل الكلب؛ يتيماً يقتات مِنْ عرق جبينه، حمَّال كادح، يَتَنَقَلُ بين الأسواق؛ يَحْمِلُ لهذا جوال، وينقل لذاك قفص، ويَشْحِنُ لأحدهم أثاث بيته فوق سيارة نقل، وهكذا كانت حياته.

جلسا الصديقان يتداعبان ذات يوم، فقال الشاب إلى الكلب:

– هيا لآخذك في نزهة إلى مدينة الأبراج التي تَطُلُ على النيل؟

وتجهزا الصديقان وأخذا حزام طريق طويل حتى دخلا مدينة الأبراج، فتبدت على ملامح الكلب الدهشة، وراح يتأمل كل شيء مِنْ حوله بشغف؛ الشوارِع

الواسعة النظيفة، الأبراج الزجاجية العالية، ضجيج السيارات الفارهة، إشارات المرور التي يقف بها مِنْ فينة لأخرى، الضجيج الغريب المنبعث مِنْ السيارات، والكلاب الضئيلة الحجم ذات الشعر الطويل الناعم التي تطل بسعادة مِنْ نوافذها، والبشر الضخام المعلقون على لوحات أعلى الجسور.

بعد دقائق تَنَاوَبَتْ على أنف الكلب رائحة اللحوم المشوية، فتوقف فوق الطِوَار يبحث بأنفه وببصره عن مصدرها بين المباني الضخمة وواجهات المحال الزجاجية، فلاحظه الشاب، وعاد له؛ قَرْفَصَ أمامه، وراح يُرَبِّتَ على رقبته قائلاً:

– صديقي... اتبعني ربنا يرضى عنك، ولا تكترث لأي رائحة طعام هنا أرجوك، فهذه الأطعمة ثمنها يزيد على ثمني أَنَا وأَنْتَ حتى إن اغتسلنا ووضعنا عطراً، اتبعني لنذهب إلى كورنيش النيل، لترى أَنْتَ نهراً مِنْ أنهار الجنة، وأرى أَنَا الفتيات الجميلات في حُلَّلَهُن الضيقة والقصيرة وأمتع عيناي؛ لأنك تعرف أني ربما لن أَتَزَوَّجُ أبداً، وإِنْ تَزَوَّجْتُ فستكون مِنْ عينة قاطنات مدينة الأكواخ، وأَنْتَ رأيت بنفسك مقدار الصدأ والوسخ على أجسادهن، ناهيك عن حظائر القمل بشعورهن، وكتائب البراغيث بثيابهن القذرة، هيا لا تقلب عَليَّ المواجع أرجوك؟

وصلا الاثنان إلى الكورنيش، وكانت الشمس تهوي إلى فجوة الغروب بتأن خلف الأبراج الضخمة، ناثرة أشعتها الذهبية الواهنة على نوافذ الأبراج

الزجاجية، وكانت أمواج النيل تَلْمَعُ بوميض كالذهب، والمراكب تشق بأشرعتها صفحته الخضراء بتؤدة.

قعدا الصديقان فوق المقعد المثبت فوق الطِوَار، كانت وجهة الكلب إلى النيل يتأمله في صمت، وكانت وجهة الشاب إلى الكورنيش يتأمل الفتيات الفارهات المارات، وتَنَاغِي العشاق، والسيارات الملونة والأبراج الزجاجية.

وقف الشاب، فنظر إليه الكلب، فوجده راح يذرع الطوار يميناً ويساراً مُتأملاً كل ماحوله، فعاد لتأمل النيل.

من بعيد ظهرتا سيارتان فارهتان قادمتان بسرعة تتسابقان، استدار الشاب ليشاهدهما؛ انحرفت إحداهما واعتلت الطوار وصدمته سريعاً فقُذف بعيداً فوق الطوار ينزف دماءً غزيرة، ثم وقفتْ السيارة غير بعيد، ولم ينزل منها أحد، واختفت الأُخرى سريعاً.

انتفض الكلب راكضاً صوب صديقه، وجده مُلقى أرضاً غارقاً في دمائه، لا ينطق، يرتجف، تتحشرج الأنفاس بصدره، وتخرج كشخير النائم؛ أيقن أنه هالك لا محالة؛ ظل يئن بجواره ويلعقه ويشمه بحزن.

رفع الشاب يده بثقل، أشار صوب السيارة التي صدمته، ثم سقطت يده، وتهادت أنفاسه، وأُغمِضتْ عيناه، وهرع الناس صوبهم، وانتشرت الجلبة.

حينئذ؛ وجّه الكلب بصره إلى السيارة كاشفًا عن أنيابه، مُقرراً الانتقام لمقتل صديقه، ثم انطلق صوبها.

خرج قائد السيارة مُترنِحاً، راح يدور حول السيارة يتفحصها، وفجأة؛ قفز فوقه الكلب، وغرز أنيابه برقبته واقتطعها فسقط القائد أرضاً ينتفض في بركة دمائه، وانتشر الذُعر والصراخ والاستغاثات بين المارة.

اِعْتَلَى الكلب صدر قائد السيارة المُسجى مغتاظاً، وظل يَتَمَلْمَلُ فوقه حتى فارق الحياة، عندها نَبَحَ غاضباً بأعلى صوته في كل الاتجاهات فتردد صدى نباحه بين أبراج المدينة. ثم صمت، قال في نفسه متأملاً وجه القتيل: لقد قتلت مَنْ أطعمني وآواني! منذا يطعمني الآن؟ منذا يأويني؟ لن يشبعني بعد اليوم سوى لحمك!

وهمَّ الكلب بنهش لحمه نهشاً، لولا أن دَوَتْ سارينة الشرطة، ووجد رجال في حلل بيضاء يهرولون صوبه مُمسكون بأيديهم أشياءً سوداءً تقذف اللهب، مصاحباً لفرقعة مُدويّة!

حينئذ؛ قفز سريعاً واجتاز طريق الكورنيش، وتوارى بين شوارع مدينة الأبراج.

فَكَرَ في العودة ليلقي على صديقه نظرة وداع، ولكنه لم يَهْتَدِ إلى الطريق، عندها قرر العودة إلى الكوخ، ولكنها أَظْلَمَت مِنْ حوله، فظل تائها بالطرقات حتى غادر المدينة، وبات بالعراء. مع شروق الشمس اهتدى لمدينة الأكواخ، وَصَلَ إلى كوخ صديقه، ومكث به أيام ولمّا قرصه الجوع غادره.

رحل قاصداً الوهدة التي ولد بها، رحل ولازالت صورة صديقه الشاب المضرج بالدماء لا تفارق خياله.

مرت الأيام؛ وَصَلَ لأطراف المدينة التى وُلد بها ليلاً، بحث عن أمه وإخوته فلم يجدهم، ولم يجد كلباً واحداً!

بالصباح؛ خرج مِنْ الوهدة وتمشى قليلاً تجاه المدينة، ولمَّا اقترب وجد أمه وأخوته موتى فوق أكواماً مِنْ الكلاب النافقة، عندئذ؛ خاف على نفسه وترك المدينة، وعاد أدراجه قاصداً مدينة الأكواخ.

وبعد انقضاء شهر من المسير، وَصَلَ إلى مَدِينةِ الأكْواخِ، دَخَلَ الكوخ المُشَيَّدٌ مِنْ خَشَبِ وَصَفِيح، كان متعباً فَانْطَرَحَ أرضاً، شَعَرَ بخَدَر يَلْتَحِفُ سائر جسده، أَحَسَ بأنه مريض، راحت ذكرياته تَتَخَبَطُ بجدران عقله، راح يَسْتَعِيدُ كل ماحَدَثَ له.

قال في نفسه: ليتني وُلِدّتَ كلباً ضئيل الحجم بشعر أبيض طويل وناعم، لكنت أَسْتَقِلُ السيارات وأَطُلُ مِنْ نوافذها سعيداً، لكن مَنْ منا يختار مصيره؟وُلِدّتَ كَلبْاً بَلَدِيّاً، أسوْداً قبيحاً، وبعينين حمراوتان كالعفريت، وبذُنب أبتر مقزز!

لم يقوَّ على النهوض، أخذته نوبات نوم غريبة، كلما اِسْتَيَّقَظَ نام، وكلما نام شَعَرَ بأنه مستيقظ؛ تارة يرى خيال صديقه يغسله ويُقَدِمُ له الطعام وينقله من مكانه إلى مكان آخر، وتارة يجده يُمَسِّدُ له شعره ويبتسم في وجهه.

لم يعد يفقه إن كانت هي أحلام أم حقيقة؟ حتى أفاق وشعر بتحسن؛ فتح عيناه فوجد دجاجة مطهية في طبق أمامه، وبجوارها طست ملؤه الماء؛ تَعَجَب كثيراً وتساءل في نفسه عمَّن جاء بهما؟

نَهَض، خرج مِنْ الستارة القماشية بتثاقل، ذُهِلَ من ضوء الشمس الشديد بالخارج، أغمض عيناه دقيقة ثم فتحهما، وبالكاد رأى شخصاً واقفاً، لا يظهر منه سوى ظهره، بالقرب مِنْ الكوخ. نبح نبحة واهنة، استدار الشخص فوجده صديقه الشاب؛ بيده عكازاً، وحول رأسه لُف شاشاً أبيض؛ عندها قفز في أحضانه، فاحتضنه الشاب ونزل على ركبتيه متطايرة الضحكات الممزوجة بالآهات من فمه، فراح الكلب يلعق وجهه ويتشممه ويئن أنيناً عالياً، قال الكلب في نفسه: لو كنت أستطيع النطق لقلت حمداً لله على عودتك، وقلت أني أفتقدك كثيراً وظننتك ميتاً، ولكني أعرف أنك تفهمني دونما أنطقُ!

أَدْمَعَت عينا الشاب وراح يُمَسِّدُ شعره، ويَربِّتُ على عنقه ويقبله على خَطْمُه مبتسماً:

– أَنَا أيضاً افتقدُك كثيراً، لقد نجاني الله مِنْ أجلك، وسَعِدتُ بما فعلته من أجلي، ولكن لابد أن نرحل فوجودنا بذلك الكوخ خطر عليك وعليّ؟

نظر الكلب في عمق عيني صديقه فرأى نفسه كبير الحجم فاطمأن.

تجهزا الاثنان، وحَمَلَ الشاب حقائبه، ومرقا سوياً يخترقان السراب المتوهج؛ قال الكلب في نفسه: اللهم ارزقنا بمدينة قمامتها دسمة.

قُربَان

رَحَلَ عن القرية ولم يعد، ربما لن تطأها قدمه ثانية.

دَكَّته الرابضة أمام داره ذو الطابق الوحيد، المُشيَّد من الطوب اللبن على عَجَل _تراكمت على خشبها الأتربة، وتحلَّقتها نباتات الحلف المُصفِّرة الشائكة.

أرضًا؛ أمام الباب الخشبي، الذي تشعَّبَتْ حوله خيوط العناكب فكادت أن تخفيه؛ طَفحَتْ بُقع الأملاح ذات الرائحة النتنة من أعماق الأرض. إن كان موجودًا وحدث ذلك، لأتى بطسوت الماء وسكبها فوقها، ثم قلَّب الأرض بفأسه ودكَّها، وما أن ينتهي، إلا ويسيل العَرَق عل جبينه البارز كحبات الماس.

لحيته بيضاء مُشذَّبة، وبشرته حمراء وردية عجيبة، وحاجباه كثَّان، أما عمامته فدائمًا خضراء. يرتدي دومًا جلبابًا أبيضًا قصيرًا. دخل القرية منذ عام على حين غَفلة، وبعد انتهائه رحَل. العجيب لم يكترثُ له أهل القرية مثل اكتراثهم لأي غريب!

ابتاع قطعة الأرض الواقعة بالقرب من المقابر، والبعيدة عن ديار القرية من أحد أفرادها، واكترى الأنفار والبنائين، وشيَّدها على عَجَل. وقت قدومه لم تكن أمتعته كثيرة مُلفِتة؛ ثلاثة أجولة خيش؛ جِوال مُنهن بدا أنه ممتلىء بالأوراق أو الكُتب.

في غبشة الفجر كل يوم عدا الجُمعة؛ يكترِ عربة بحوذي، ويحمل عليها القصعة وتنكة الزيت وعجينة الفلافل والموقد، وبعض الأسفاط. وأمام الوحدة الصحيّة المُحاطة بسور قصير، ومُشيّدة من طابق لاغير، تتخللها شجرات الزينة، وقدام موقف سيارات القرية؛ يفترش حاجياته، ويبدأ بقلي الفلافل، حتى تصله أسفاط الخبز الساخنة من فُرن قريبة من موقف السيارات، فوق ذات العربة.

عرفه جميع السائقين؛ لقبوه بالشيخ الأحمر، فلم يعرفوا له اسمًا، ولم يتجرَّأ أحدًا على طلب معرفته! فقط كانوا يتعجَّبون من لهجته التي تقع في المنتصف مابين القاهرية والجنوبية؛ مُغايرة للهجة أهل القرية البدوية.

"أبنوب... عرب مطير"، "الذاهب إلى مركز أبنوب..."

ذات صباح؛ تعالت النداءات بجوار سيارات النقل المُفصَّلة لها صناديق من هياكل معدنية وقماش، وألواح خشبية؛ لنقل الركاب من موقف "عرب مطير" أمام الوحدة الصحيّة بالقرية إلى مدينة "أبنوب". توقَّف سائق عن النداء، وتقدَّم صوب الشيخ الأحمر في خطوات متئدة بجلبابه الفِضفاض، ورائحة الفلافل تخترق أنفه. تناول الخبز والفلافل، وقعد على البساط، ثم وضع إفطاره فوق سفط مقلوب. بدا على وجهه ذا الملامح المنقبضة أنه يعاني من أرهاق ما؛ رمقه الشيخ بنظرات عطوف تتوسط وجه باسم، وطشيش الفلافل في قصعة الزيت فوق الموقد يتوانى:

– هل تعاني من هذا الصداع كثيرًا يا "شريف يا ابن سالم"؟

تعجَّب السائق: كيف عرف اسم أبي! ربما سمعه من أحد زملائه! وأجابه:

– قبل مجيئك لنا بشهور ياشيخ!

صمت الشيخ لحظات انشغل فيها بلف قرطاس فلافل من الصنية أمامه لطفل صغير؛ ثم أخذ منه المال ورحل:

– سيزايلك بلا رجعة إن شاء الله.

قالها له الشيخ بتقاسيم جادة؛ ابتسم السائق في وجهه مُجاملًا إياه، ومُفكِّرًا: ربما يمزح، أو ربما كان شيخًا لديه ملوك من الجن المؤمنين؛ ربما ساحر! لا ليس ساحر، وجهه الوضَّاء لا ينم سوى عن خير؛ أجل، أو ربما يمزح، ولكن كيف عرف بأمر الصُداع؟! مرّت أيام، وتفاجأ الشيخ بعد صلاة إحدى الجُمَع ببابه يُطرق، ولمَّا فتحه وجده السائق:

– شريف... أهلًا، تفضَّل؟

تلجلج شريف:

– بارك الله لك ياشيخ...

ابتسم الشيخ وكأنه يعرف سبب قدومه:

– ما فعلتُ شيئًا؛ ما نحن إلا أسباب ياولدي!

– لقد زايلني الصُداع؛ والبركة على يديك...

تضايق الشيخ:

– قلت لك نحن أسباب ياولدي، تفضّل لتشرب الشاي؟

فكَّر شريف قليلًا، وبدَت حيرة وجهه:

– سامحني ياشيخ، ولكن أريدك أن تأت معي إلى بيتي، أريد منك خدمة بارك الله لك؛ إن ابني يعاني من صُداع أفتك مما كنت أعاني منه؛ دبّ به مذ دبّ بي، ونريد لبركتك أن تحل بدارنا... هو ولدنا الوحيد الذي لم ننجب سواه... ما رأيك ياشيخ؟

تفحّص الشيخ عينا شريف بابتسامة غير مُكتملة للحظات، ثم استدار نحو الداخل:

– سأحضر عباءتي، انتظرني؟

تمشيا جوار بعضهما على الأسفلت، ثم انعطفا شِمالًا إلى داخل طرقات القرية الترابية، مرّا بين ديار القرية المتنوِّعة مابين الطوب النيء والآجر بطوابقها التي لاتزيد عن ثلاثة. كانت العيال تصيح خلفهما بنزق: "هاهو الشيخ الأحمر يمر"، "شيخ الفلافل رائحته فلافل". لم ينزعج الشيخ قدر انزعاج شريف:

– عيال ياشيخنا لا تأخذ على خاطرك؟

لم يجبه سوى بابتسامة مصوَّبة إلى موضع خطواته.

في الدار؛ استقبلتهما زوجة شريف الملفوفة بثيابها الفِضفاضة من خلف الباب المموارب مُرحِبة، ودخلت لتعد الشاي، فجلسا على الدَّكة جوار بعضهما. دقائقًا كان الشيخ يتأمل فيها حِزم بوص السقف، وجدران البيت الطينية الناتئة، والممتلئة بالشقوق؛ كانت قد أحضرت فيها الزوجة الولد وصنية الشاي.

– ما اسمك يافتى؟

سأل الشيخ الصبي الهزيل قمحي البشرة، ذو السبعة أعوام، فأجابه مُستحيًّا:

– "سالم".

كانت الأم تتوارى بعيدًا خلف ستارة قماشية؛ تراقب مايحدث، وتعجَّبَت كثيرًا من نظرات الشيخ لابنها، نظرات أورثتها خيفة على الصبي، وكأن عينا الشيخ تلمع بوميض ترجف منه القلوب، وميض لم تنساه أبدًا منذ ذلك الوقت.

لمّا شعر الشيخ بمراقبتها لهما، نظر إليها نظرة حادة، جعلتها تتراجع إلى الداخل كالمنوَّمة، وزوجها يجلس جوار الشيخ، وعبارات الترحيب تتطاير من فاه بسذاجة.

– سيطيب قريبًا إن شاء الله.

بعد جلسة تأمل للصبي، نطقها الشيخ، فسعد الأب، وظل يدعو له، وذكَّره بكوب الشاي الذي برَد أمامهم.

– أجهِّز الغداء ياشيخ؟

– لا داعي لتعبكم؛ سأكتفي بالشاي.

ليلتئذ؛ قالت أم الصبي لزوجها:

– قلبي غير مُرتاح ياشريف لذلك الشيخ، أخشى منه على الولد!

كان شريف يدخِن النرجيلة، وزوجته تُكَرِّس له فوقها قِطع الفحم المُتقدة:

– إنه بركة يا حمقاء؟

– لقد خِفتُ من نظراته للولد!

نفث شريف عمود دُخان، وأشار لها أن تجلس بجواره على الدكة:

– تلك النظرات التي رأيتها؛ ربما ليست نظراته، غالبًا هي نظرات ملوك الجان المؤمنين الذين يساعدونه في شفاء الناس.

تبلبلت الزوجة، وأخذت تتعوَّذ مُرتعدة.

في إحدى الصباحات، بعد مرور أسبوعٍ؛ تلألأت الشمس من خلف أكمة النخيل. من موضعه خلف قصعة الزيت؛ رأى الشيخُ الصبيَ "سالم" تمسكه أمه من يده، وتدخل به إلى الوِحدة الصحيّة، فابتسم له، ولكن أمه سحبته

مهرولة إلى داخل الوحدة، فتفلَّت منها الصبي، وركض إلى الشيخ؛ سلَّم عليه، فسأله الشيخ:

– كيف حالك ياسالم اليوم؟

نظر الصبي إلى الفلافل الساخنة، والتمعت عيناه، فضحك الشيخ، وأمسك برغيف، وضع به قرصي فلافل وأعطاه له، أخذها الصبي، وابتعد فرحًا مرددًا:

– الحمد لله، ياجدي الأحمر؛ أنا ذاهب مع أمي؛ هي المريضة لستُ أنا.

ضحِك الشيخ، ثم عاد لينهمك في عمله.

في صباح هاديء؛ انطلق نداءً من الجامع الكبير: "يا اهالي القرية الكِرام، سالم ولد شريف تايه من ليلة البارح؛ اللي يلاقيه يوديه لبيت أبوه شريف ولد سالم وتبقون ماقصَّرتم..." تردد النداء بين جنبات القرية، لتضرب العجائز كفًا بكف، ويمصمصن شفاتهن، وتجري العيال بين ديار القرية وخراباتها باحثين عن الصبي.

أمه وأبوه صارا كالمجنونين، تائهين بين شوارع القرية وأزقتها يسألان حتى أشجار النبق والنخيل، حتى الكلاب الضالة، والبؤس والدهشة يعسكران بوجهيهما.

في هذا الصباح؛ رأى بعض أهل القرية الشيخ الأحمر يرحل فجأة، وقد زادت أجولته الضِعف؛ ثقلَت فوق العربة، وكأنها مُلئت معادنًا وأحجارًا. وبعد رحيله

أفاق الجميع متسائلين في جلسات سمرهم الليلية وحلقاتهم حول النار عن كنهه، وكيف قبلوه بينهم دون معرفة أي شيء عنه!

بعد رحيله، لم يكن يتجرأ أحدًا من أهل القرية على العبور من أمام دار الشيخ المهجورة. في هويد الليل؛ كانت تُسمع صرخات طفل مُزلزلة، ترعب أعتى الرجال شجاعة!

بعد مرو شهرين؛ كان شريف يجلس أمام بيته بين جمع من الرجال حزينًا شاردًا. لقد حكى لهم عن حِكايته هو وابنه مع الشيخ الأحمر، وحكى لكل من قابله، عساه أن يجد في عيونهم ثمة أمل. عرفت القرية بأكملها، وسيطر عليهم القلق، واعتَقدَ الجميع بأن وراء ذاك الشيخ سرًا ما!

في حلقتهم حول النار، أمام دار شريف؛ هب رجلا من بينهم مرددًا:

– لنذهب إلى داره ونبحث به عن أي شيء؛ لابد أنه ساحر، وربما قد اختطف الصبي ليمارس به سِحره؟

قال آخر:

– لا تخشوا شيئًا؛ نحن رجال كثر وعلى قلب رجل واحد، والعفاريت تخشى جَمْعَة الرِجال المأتلفة!

كانت الأم بالداخل مُنزوية بأحد أركان البيت مُنكمشة على نفسها. يتسرَّب إليها بصيص نور من النار بالخارج من نافذة أعلى الجدار، فتبدو في نعومة

الظلام مثل لوحة زيتيّة باهتة. يتردد في أعماقها ذاك التحذير الذي أفضت به إلى زوجها ليلتئذ، لكنه لم يهتم: "قلبي غير مُرتاح ياشريف لذلك الشيخ، أخشى منه على الولد!" ثم نجوى حائرة تطلب فيها من الإله رأفة بحالها.

لم يكن هناك مُتسع من الوقت؛ صنعوا المشاعل من المفارش والبُسط، وأشعلوها من النار بينهم، وهبُّوا في جماعة تزيد عن عشرة رجال إلى دار الشيخ المهجورة، وبينهم شريف يمشي مُتخاذلًا. في طريقهم انضم لهم كُثر. لمّا وصلوا الدار، وجدوها مُعتمة، حطَّم بعض الرجال الباب ودخلوا، في حين أن شريف تخاذل مُتهالِكًا فوق الدَّكة أمام الدار يرتجف ويغمغم!

كانت الدار من الداخل موحشة، وتعثّر الرجال بأكوام من الرمل والطين اليابس، تقدموا أكثر فوقعوا على حُفرة في باحة الدار قُطرها مترًا ونصف المتر، وعُمقها لا يصل إلى خمسة أمتار، وكانت الصدمة حينما وجدوا دماءً جافة متناثرة حول الحُفرة وفي قُرارها فوق كومة صخور. تفرَّق الرجال بمشاعلهم مُتتبِّعين خطًا من الدماء المُقطَّرة إلى إحدى غرفتي الدار، فصاح أحدهم من الغرفة اليُسرى بملء فاه: "لا إله إلا الله!" هرع بقيَّة الرجال إليه، فوجدوه مُتيبسًا وبيده المِشعال أمام رمح غُرس وسط الغُرفة، في قلب نجمة خُماسية رُسمَت بالدماء؛ وأعلى الرُمح؛ كانت رأس الصبي "سالم" المقطوعة مُنغرسة به، ومُلطَّخة بالدماء، ومفقوءة عيناه، تسيلان من محجريهما دماء جفتْ.

لم يجدوا أي شيء غير رأس الصبي وفأس الشيخ ومقطف جلدي. خرجوا يلفون الرأس بجلباب أحدهم، وقدَّموها إلى شريف قائلين: "إنا لله وإنا إليه راجعون". شهق شريف مصعوقًا، وذُهل مُغمغمًا: "كيف خدعنا؛ لقد كان وجهه الوضَّاء لا ينم سوى عن خير!"

اعترت شريف حالة اغماء، حاول الرجال إيقاظه، فلم يفق ولكن إصبعه الإبهام تحرَّك بطريقة عجيبة، وكأن يدًا خفيّة تتحكَّم به في أشارة إلى الأرض أسفل الرجال، فأفسح الرجال، فوجدوها بُقعة الأملاح، نزلوا يحفرون فيها بأيديهم، وما أن أحضر أحدهم فأس الشيخ من الداخل إلا وتعثَّرت أناملهم بشيء صَلب. ولمَّا وَسَّعوا حوله؛ وجدوها جُثة الصبي، وقد تآكل لحمها من الأملاح، وما تبقى سوى هيكلها العظمي!

لفوها في ذات الجِلباب، وحملها شريف على ذراعيه باكيًا مُتعثِّرًا بذيول جلبابه وحصباء الأرض كلما تقدَّم. وتحركت المشاعل تخترق الظلام صوب المقابر القريبة لإكرامها.

لم يبرأ "شريف ولد سالم" حتى الآن، صارت كل كلماته جملة واحدة، لا يلوك فمه سواها؛ يدور في الطرقات مرددًا إياها:

– لقد كان وجهه الوضَّاء لا ينم سوى عن خير!...

لقد رَحَلَ الشيخ الأحمر عن القرية ولم يعد، ومؤكد لن تطأها قدمه ثانية.

آلام آدم

بأنامله الضخمة الجعدة المدببة؛ راح يداعب خصيلات شاربه البيضاء المتهدلة على شفته العليا شارداً؛ يزيحهن يميناً تارة، ويعيدهن يساراً تارة أُخرى، جالساً بشُرفة بيته الواسعة الهادئة.

الرجل؛ خُلقت له حواء من جسده، من لحمه ودمه، وصار هناك خيط حنين فطري وغريزي يربط بعضهما بالآخر، يجذب بعضهما للآخر، دائماً يبحثان عن بعضهما البعض؛ يبحث الرجل عن نصفه المفقود، يخصص بقلبه ركناً لتلك الأنثى التي ستسكنه، يؤجل ابتسامة خاصة للقائها؛ ابتسامة لا يبتسمها لغيرها، وحضن يشعر وهي به أنه اكتمل.

والمرأة تظل تبحث عن منبتها، تبحث عن تلك الروح التي انفصلت عنها قديماً، تبحث عن ذلك الحضن الذي يعيدها حيث خُلقتْ.

لم يخطيء مذ ما يربو عن عشرين سنة حينما ابتسم لها تلك الابتسامة التي كان يُعَيِّنها لمن ستُكمله، شعر بأنها هي التي ستنصهر في حضنه وتندمج بجسمه ليصبح آدم جديد، وليشكلا سوياً مادة الوجود الأولى، وكلما انفكت عنه اصبحت حواء جديدة؛ أصبحت ونيسه الجديد القديم.

لم يُصدق نفسه؛ سارعِ بخطبتها، ومع الأيام وجد فيها كل مايبحث عنه، ليس فقط عيناها الواسعتين العسليتين، ولا أنفها المنسدل برقة من بين عينيها، ولا شفتيها الممتلئتين الحمراوتين، ولا حتى بشرتها البيضاء، أو قوامها الممشوق، أو قامتها المتوسطة، ولا صوتها الذي كانت كلما تحدثت يشعر بأنه وحياً من السماء، لا يَمُت إلى الأرض بصلة، يأتي من كل صوب واتجاه؛ ناعماً، رقراقاً، نغماً لم يُعزف من قبل، ولن يُعزف من بعد، بل كل ذلك وأكثر جعله يشعر بأنه في حُلم، لا يريد الإفاقة منه أبداً.

تعلق بها تعلقاً فطرياً، لم يعد يعرف من صِنف النساء سواها، ناسِكاً وهي محرابه المُقدَّس، عابداً وهي معبودته المُنزهة، وهالة من القداسة والنورانية لا تُفارقها في واقعه وخياله.

– نتزوج، وكفى خطوبة إلى هذا الحد؟

كانا جالسين على مقعدين على شاطيء النيل عند الغروب، ومن حولهما العشاق كالفراش المبثوث؛ ابتسمت، قالت بصوتها الرقراق:

– موافقة؛ نتزوج.

ومرَّت الأعوام على زواجهما، وأثمرت عن ثلاثة أطفال؛ ولدان وفتاة، كانوا له مثل أمهم؛ مخلوقات ملائكية مُنزهة، كان أسعد البشر، بل لم يكن بشر؛ كان يشعر بأن هالة قُدسيتها طالته، وأصابه بصيص من نورانيتها.

بحث كثيراً في تقاسيم أطفاله، مقق بصره ودقق؛ لم يعثر لنفسه عن ملمح واحد، سوى لون عيونهم السوداء، وتشابه أنوفهم الصغيرة بأنفه؛ بشرتهم بيضاء، مثل أمهم حتماً، لكن بشرته هو قمحية، لمَ لم يجد بينهم بشرة واحدة تُشبهه؟ مؤكد هي الهالة النورانية المُقدَّسة التي طغَتْ على قوانين الطبيعة والوراثة، فأفرزت مخلوقات ملائكية لا تُشبهه بل تُشبه معبودته المُنزهة فحسب.

يعود من عمله، لا يجدها بالبيت، لا يقلق، فهي حُرة، هكذا اتفقا قديماً؛ تخرج أنى شاءت، وتؤوب أنى شاءت، وهل يحجر العابد على معبوده، في أي شريعة ذلك؟! المعبود المُنزه لا يُسأل عمَّا يفعل، والعباد يُسألون.

لمَّا تعود كانت تدفنه بحُضنها، فيخشع على صدرها، ويغمغم بتراتيل الحب، ويلج جنة الخُلد، التي لا يخرج منها إلا بشروق الشمس.

بعد مرور السنين، وتراكم الخبرة في الحب؛ يجلسان بالشُرفة صباحاً، وعصافير حديقة البيت تشدو بترانيم الصباح، تقول له شاردة:

– أخيراً سيتزوج الأولاد؟

يجيبها سارحًا:

– لقد كبُر الأولاد، ولكنًا لم نكبر بعد، أنتِ كما أنتِ معبودتي ومحبوبتي، وبنفس هالتكِ النورانية المُقدَّسة، بل ازددتِ قداسة وجمالاً، وأنا لم يكبر فيّ شيء سوى حُبي لكِ، هو في حالة ازدياد مُطَّرد مع ازدياد السنين.

تزوجت الفتاة، وتزوجا الولدان، وعادا لوحدهما؛ آدم وحواء؛ مادة الوجود الأولى. الروح التي انقسمت قديماً، لم تكبر ولم تهرم، ما كبُر وهرم فقط الأجساد؛ الروح تظل شابة نضرة مهما تقدمت الأجساد في السنين، تظل تحمل بين طياتها كل خصائصها الفطرية والمُكتسبة من حُب وإيمان، وشر وخير.

مع مرور السنين؛ ظلت روحه حاملة بين جنباتها الحُب والقداسة لمعبودته، حتى مع تكالب التجاعيد على الوجه الملائكي، كان يشعر بقدسية أطغى، بعظمة أكثر، ومع انتشار الشيب في شعرها الأسود الحريري، كان يشعر بهيبة أكبر، ونورانية أعمق، وكان أمام كل ذلك لا يسعه إلا أن يجعل إيمانه بشباب الأرواح دوماً أمام ناظريه؛ يقيناً وعملاً.

مؤخراً؛ حدث له شيء غريب، مجرد مزاح كاد أن يزحزح يقينه بمعبودته، ولكن إيمانه كان أقوى من أي دليل، ومن أي حقيقة أو مزاح؛ صديق له يعمل طبيباً؛ قال له ممازحاً:

– لقد كبرت ولم تعد بك عافية لمواقعة النساء، وحتى إن واقعت إحداهن فلن تُنجب أبداً؟

جُن جنونه آنذاك، وقرر أن يتحدى صديقه الطبيب، لايدري لماذا، عندئذ؛ قرر الطبيب عمل تحاليل له، لمعرفة قدرته على الإنجاب، وخرجت النتيجة.

– عقيم!

كانت النتيجة! لم يُصدق!

كيف يكون عقيماً ولديه من الأولاد ثلاثاً؟!

وكيف يحاول هذا الطبيب مُجرد المحاولة في التفكير بالمساس بنورانية معبودته، زوجته المُقدَّسة، شريكة حياته، عِشرة العمر؟

– مؤكد هناك خطأ بأجهزة التحاليل، أو أن هذا العُقم حدث مؤخراً!

كان رده على صديقه...

– ربما ياصديقي!

كره صديقه، قطع صداقته به؛ هو لا يريد شيطاناً يزعزع إيمانه، ولا يريد الضلال بعد الهداية، لا يريد الخروج من الجنة، لا يريد هجران محرابها، هو لايريد أن يُقذف في جحيمها، إنما يريد نورانيتها، وقدسيتها... وكفى.

***

يفيق عند دخول معبودته الشرفة، ويكف عن مداعبة خصيلات شاربه. دخلت ممسكة بفنجانين من القهوة، وضعت أحدهما أمامه، ووضعت الأخر أمامها، ثم قعدت في هدوء.

رمقها بنظرة إجلال، لا تشوبها شائبة، ابتسمت له، صمتت، عاد لشروده، تناولت فنجانها، ارتشفت منه رشفة، حدجته، قالت:

– فيم أنت شارد؟

– لا شيء سوى الذكرى الطاهرة.

عادت لصمتها، وفجأة؛ تكدَّرت ملامحها، وأَرْبَدَّ وجهها، ونظرت له، لاحظ تغيُّرها، تأملها مُتعجباً، قالت حانقة:

– أريد أن أُخبرك سراً هاماً لا أطيق كتمانه بداخلي أكثر من ذلك؟

انقبض قلبه، ارتعد كل شيء به، تصبب عرقاً، شعر بأنه يهوي في بئر سحيق مُظلم؛ ملؤه النتوءات الصخرية الحادة التي تسحَج روحه. تذكر صديقه الطبيب، تذكر التحاليل الكاذبة، تذكر همزات الشيطان، تذكر الضلالة بعد الهدى. هل حان وقت الخروج من الجنة؟ هل ستنقشع الهالة النورانية عن لا شيء؟ هل سيعد آدم وحيداً بلا ونس؟ هل ستفسد مادة الوجود الأولى؟

بدأت دموعها في الانهمار بغزارة؛ كانت أول مرة يراها تبكي. المعبودة ضعيفة، المُنزَّهة تنتحب؛ فماذا عساه أن يفعل وهو العابد؟ شعر بثقل يجثم على كل عُمره، يجثم على كل ذكرياته معها، يجثم على روحه، بل يقتلع روحه اقتلاعاً بلا أي رحمة.

قرر: لابد من إيقافها، لابد من إسكاتها، لابد لها من التزام هالتها النورانية المُقدّسة. لابد أن يظل ناسِكاً في محرابها حتى آخر لحظة في عمره؛ لن يترك جنتها أبداً... ولابد من إيقاف اقتلاع روحه!

ازدرد ريقه، قال بصوت خرج مُرتجفًا:

- لا أريد الاطلاع على أي أسرار.

ثم قال في نفسه: ليس للعابد أدنى حق في معرفة سر من مكنون أسرار معبودته!

ثم عاد لشروده من جديد.

باب الجنة

بَدَتْ السماء متسخة بغيوم سوداء داكنة؛ تحوم بخلجاتها الطيور الجارحة مصدرة صرخات يتردد صداها في أعماق قلبه.

على الأرض؛ ينتصب هو؛ شاب بدا في عقده الرابع من العمر؛ ذا بشرة سمراء باهتة، وعينان ذابلتان داميتان، وتقاسيم شاحبة، وقامة طويلة هزيلة البنيان؛ يسيل من فاه اللعاب كطفل رضيع، مثبت إلى عامود خرساني لا يتعدى المترين، موثق من حول خصره وصدره بالحبال؛ متوحداً مع العامود في ثباته؛ رَخْوّ الرقبة مطرق الرأس، عارِ الجسم إلا من خرقة قماش تستر عورته، مبتور الذراع الأيمن؛ وما يزال جرحه يقطر دماً، ومسجاة غير بعيد عنه ذراعه المبتورة.

بدا المكان من حوله ساحة مجدورة بأشلاء البشر المضرجة بالدماء؛ تحوم من فوقها الطيور الجارحة؛ تهبط من فينة لأخرى؛ تخطف نسيلة لحم، ومن ثم تحلق بها لتأكلها بعيداً؛ وسط أطلال قرية كانت أكواخاً وتهدَّمَتْ.

رفع الشاب بصره بتؤدة، حطَّتْ نظراته فوق جثتين محترقتين لتوهما؛ تتصاعد منهما ألسنة الدخان بوهن.

بنظرات ضعيفة حانية راح يتأملهما، فانتابت الرجفة فكه الأسفل، وتسارعت اصطكاكات أسنانه، وبعد لحظات؛ سالت دموعه بتأنٍ. بدا أنه يعرفهم جيداً؛

الفهرست

أطرق رأسه؛ أغمض عيناه؛ دبَّتْ فيهما الحياة من جديد، ولكن في مخيلته فقط!

****

قبل ساعة؛ كان في نفس موضعه؛ سليم الجسم؛ يتحلقه رهط من شباب سمر الوجوه، طوال القامة، يتزيون بزي شرطي، ويمسكون بالخناجر، وبأحزمتهم مسدسات راقدة في أغمادها.

اقترب نحيب امرأة وبكاء طفل من خلف الأكواخ المهدمة.

– أبي... ماذا فعلوا بك؟

قالها ثم ظهر من بعيد طفل مهلهل الثياب؛ في العاشرة من عمره، أسمر البشرة، شاحب الوجه، وبجانبه أمه؛ سمراء الوجه، دامية العينين، ربعة القامة، ممزقة الثياب، مكشوفة الثديين، ويستاقهم ثلاثة رجال مسلحين ومزدانين بالزي الشرطي.

وقفت المرأة أمام زوجها مطأطئة الرأس؛ تنتحب وتكفكف دمعاتها في صمت، وهرول الطفل واحتضن ساقي أبيه وتشبث بهما، وانفجر بالبكاء.

وقف رجال الشرطة يتفرجون بشغف، قال الطفل لأبيه بصوت متهدج:

– ماذا سيفعلون بنا يا أبي؟

أرْبَدَّ وجه الأب، وتكدَّرت قسماته. بماذا يُجيب على الصغير؟ أيقول له الحقيقة؟ أم يكذب عليه؟ وإن كذب عليه؛ فسيكتشفها حتماً بنفسه بعد قليل!

– سيقتلوننا!

قالها الأب، ثم ازدرد ريقه، وزاغتْ عيناه!

– لا يا أبي لا أريد الموت!

صرخ بها الطفل خائفاً مرعوباً، فقال له أبيه:

– سأموت أنا وأمك ونتركك... قاطعه الطفل ممتعضاً:

– لا أريد العيش لوحدي!

ابتسم رجال الشرطة المتفرجون، وتغامزوا فيما بينهم، قال الأب بصوت متهدج ووجه مُرتجف:

– إِذَاً تعال معنا إلى الجنة وأشجارها العالية، وخمائلها الخضراء، وأنهارها الرقراقة، وطعامها الذي لا ينقطع؛ ستأكل اللحوم والفاكهة التي لم ترها منذ ولادتك وأي طعام تشتهيه تجده أمامك في لمح البصر. تعال حيث لا شمس ولا نار، ولا عمل ولا شقاء؛ ستلهوا مع أطفال الجنة، وستكبر هناك ولن تموت ثانية أبداً، وستتزوج من الحور العين وهن فتيات أجمل من فتيات الدنيا بكثير، وسنعيش في قصور منيفة؛ تطل على أجمل الأنهار؟

كان الطفل صامتاً شارداً مشدوهاً جاحظ العينان، مُنبهراً ومُتعجباً من وصف تلك الجنة، لحظات وأفاق من شروده، وسأل بصوت رقيق مُطمئن:

– حقاً يا أبي؟

– حقاً ياولدي.

ابتسم الطفل، قال:

– أريد الذهاب إلى الجنة الآن يا أبي؟

لاحت ابتسامة واهنة من خلف دموع الأب وقال:

– إذا ما أردت الجنة فلا تخش الموت أبداً؟

صاح أحد رجال الشرطة:

– هل أنهيتم حفلة الوداع؟

صاح ثان:

– لقد انتهوا تقريباً!

صاح ثالث:

– خذوا الطفل واحرقوه أمام والديه لتُحرق قلوبهم؟

أضاف شرطي رابع:

– احرقوهم جميعاً لا نريدهم في بلادنا هؤلاء الحمقى؟

جذبا شرطيان الطفل المتشبث بساقي أبيه من قبة ثيابه؛ لم يقاوم الطفل ولم يظهر عليه الخوف وبدا صامتاً شارداً مُنساقاً لأيديهم.

وقفوا به على بعد أمتار منهم، وكان ظهره إلى الجميع؛ وشاخصة أبصار والديه إليه؛ والدموع لا تتوقف، والرعشات تزداد، والأنين مكتوم ثم مسموع.

اقترب منه أحد رجال الشرطة؛ سَكَبَ على رأسه النفط من قارورة كبيرة؛ بدا الطفل مستمتعاً بسكب النفط فوق جسده؛ مقهقهاً وكأنه يستحم بماء بارد حتى ابتلت سائر ثيابه وشفَّت عن جسمه النحيل!

اقترب منه أحد رجال الشرطة، ممسكاً بيده مشعال متقد، وفجأة؛ التفت الطفل خلفه حيث رست نظراته على والديه، ضحك بصوت عالٍ؛ فزِع رجل الشرطة الممسك بالمشعال؛ تعجب من حال الطفل؛ عاود الطفل النظر إلى الأمام؛ صرخ، أشار بيده مشدوهاً إلى الأمام، زعق منبهراً:

– باب الجنة!

همَّ بالركض ليدخل ذلك الباب الذي رآه هو فقط؛ اقترب الشرطي بمشعاله؛ أضرم به النار؛ لم يشعر الطفل بأنه يحترق؛ راح يركض مبتسماً، بعد ثوان؛ توقف مشتعلاً، التفت خلفه حيث والديه، وصاح بصوت جهور:

– والداي؛ سأنتظركما هناك بالجنة الكبيرة، لا تتأخران عليّ أرجوكما؟

ثم عاد ببصره صوب باب الجنة، وسط ضحكات رجال الشرطة وقهقهاتهم، وهَّمَ أن يركض لولوجه؛ فسقط على الأرض متفحماً.

سقطت رأس الأب على صدره، وتدفقت الدموع تعرف طريقها إلى الأرض. تحركت الأم وجمة متجهمة. اتجهت لمن يسكب النفط، أمرته:

– أُسكب؟

سكبَ عليها؛ اقتربت ممن يشعل النار، أمرته:

– اِشعل؟

أضرم بها النار؛ نظرت لزوجها وألسنة اللهب تلتهم ثيابها ثم جلدها قائلة:

– سألحق به... لا تتأخر علينا؟

عض أحد رجال الشرطة شفته السفلى ثم قال:

– لقد كانت ممتعة جداً لمَّا تناوبنا جميعاً على اغتصابها؛ لا تزال تأوهاتها تتردد بأذناي!

دلفت الزوجة تجاه جثة طفلها المتفحمة متثاقلة الخطى، وحسيس النار يملأ الآذان، ورائحة اللحم المحترق تغط بالأنوف، والأب؛ أُصيبت الحياة من حوله ببطء السلحفاة؛ شخص بصره صوبها، والنار بحدقتيه تلتهمها؛ ماذا عساه أن يفعل؟ حلتْ ساعتهما، أقلها لن يُظلما بعد الآن، وليطمئن أنهما عند الله سيكونان بخير.

فجأة؛ سقطتْ متفحمة بجانب جثة طفلها، وعادت الحياة لسرعتها من جديد.

اقترب أحد رجال الشرطة من الأب، استل سيفه، بتر ذراعه اليمنى، ثم أعاد السيف لغمده، وتركوه مقهقهين وفرحين بانجاز عملهم.

***

فجأة؛ سمع الأب هزيم الرعد؛ أفاق من شروده، برقت السماء، ومايزل جاحظ العينين إلى رفاة أحبائه الذين رحلوا وتركوه وحيداً!

أمطرت السماء بغزارة؛ راحت دمعاته تسيل معها؛ ظهر غير بعيد رهط من رجال الشرطة مقتربين منه؛ يمسكون بأيديهم مظلات تقيهم زخات المطر، وصلوا إليه، قال أحدهم:

– لو أضرمنا به النار لانطفأت بفعل المطر!

أضاف ثاني:

– نذبحه ونحتفل بانتهاء سكان هذه القرية؟

أضاف غيره:

– نسلخه حياً، حتى يموت من نشوة الألم؛ "الروهينجيا" هنا يحبون ذلك ويستحقونه؟

أضاف رابع:

– نطلق عليه النار!

كان الأب تائهاً بين آرائهم، غير آبه لطريقة الموت التي يتفكرون له فيها؛ الموت هو الموت أياً كانت أسبابه؛ يظنونه عقاباً له، ولكنه يعرف أنه رحمة، وبداية لولوج حياة حقيقية، والأهم أنه سيذهب إلى أسرته: مؤكد أنهم ينتظرونه بشغف. صرخ برجال الشرطة حانقاً:

– لا أريد الموت بسهولة؟

انفجرت الضحكات من أفواه رجال الشرطة، قال أحدهم:

– لقد قلتُ لكم أن "الروهينجيا" يحبون ذلك.

انفجروا ضاحكين؛ أطرق رأسه، أخرجوا مسدساتهم؛ قاموا بتعميرها، فكوا وثاقه؛ وقع أرضاً، قال له أحدهم:

– تحرك صوب أسرتك؟

جثا لاهثاً على الأرض المجدورة ببرك الدماء والأشلاء، نظر لذراعه المسجاة غير بعيد نظرة وداع: مؤكد أن هناك لقاء فيما بعد.

حاول أن يقف؛ فعلها، دلف صوب أسرته المتفحمة، فجأة؛ أُطلق عليه الرصاص، فاخترقت الرصاصات جسده. توقف إطلاق الرصاص؛ سقط على ركبتيه وكفه بجوار أسرته؛ حاول أن يتماسك، طفر فمه دماً، اختلطت مياه

الأمطار بدمائه ودموعه النازفة. اقترب منه أحد رجال الشرطة مستلاً سيفه، وقف يشاهده مبتسماً.

نظر الأب إلى الأمام؛ حملق؛ رفع رأسه؛ انتصب على ركبتيه:

- إنه هو!

تمتم بها مشدوهاً، ثم صرخ:

- لقد رأيته؛ باب الجنة! رأيتُ باب...

فجأة؛ فُصِلَ رأسه عن جسده؛ تدحرج أرضاً؛ خرت جثته محلها بجوار أسرته.

وقف رجل الشرطة فوق الجثة مبتسماً؛ ممسكاً بسيفه المضرج بدماء الشاب؛ حدَّجه زملائه، قال ساخراً ووجهه يقطر ماءً:

- فقط أعطيته فرصة ليدخل باب جنته سريعاً!

تمت بحمد الله
أنشودة الموت
مجموعة قصصية
20نص
رمضان سلمي برقي
2016-2017-2018-2019

نبذة عن المؤلف

قاص مصري، ومشروع روائي. نُشرت له قصص ومقالات وخواطر بعدة جرائد إلكترونية مثل: "مجلة همسة، جريدة شباب مصر، جريدة دنيا الرأي، جريدة اليوم، جريدة أخبار أسيوط، جريدة التليغراف، موقع ساسة بوست، صحافة المواطن باليوم السابع، شارك المصري اليوم، جريدة المطرقة، جريدة الشعب، أسرار الأسبوع، روزا اليوسف، موقع كابوس."

وقصص ورقية في جرائد مثل: "جريدة اليوم، جريدة روزا اليوسف".

ولديه مدونة إلكترونية؛ ينشر بها كتاباته، منذ : **2015**

اضغط هنا؟

عضو مؤسس لـ «دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني»

موقع الدار:

اضغط هنا؟

الأعمال السابقة:

» –وفاء الجن» رواية صدرت عن دريم بن بلترجمة والنشر والتوزيع **2021**لتشارك بمعرض القاهرة الدولي للكتاب **2021**

-أنشودة الموت_ مجموعة قصصية ورقية_ صدرت عن دار دريم بن للترجمة والنشر والطباعة والتوزيع_ تشارك في معرض القاهرة الدولي للكتاب 2020.

– 1قصة قصيرة بعنوان "مشاعر آلة" نُشرت ورقيا بكتاب "مجلة ربما" ضمن مجموعة كتاب من الشباب العربي؛ صدرت عن دار "نون للنشر والترجمة" ووزعته الأهرام وشارك في معرض الكتاب ٢٠١٥.

٢– نشرتُ على صفحات مدونته الخاصة كتاب خواطر إلكتروني «مولاتي والدمار» بتاريخ ٢٠١٧، وتمت إعادة نشره بدار «قصص وحكايات للنشر الإلكتروني» 2018وعدة مواقع إلكترونية.

٣– نُشر مجموعته القصصية الإلكترونية الأولى بعنوان «وحدي بين حطام العالم» في أغسطس ٢٠١٧ بموقع «ساحر الكتب» وأُعيدَ رفعها بمعظم مواقع تحميل الكتب الأخرى.

٤– نُشرت له الرواية القصيرة «وفاء الجن» إلكترونياً ٢٠١٧ بموقع «ساحر الكتب» وأُعيد رفعها بمعظم مواقع تحميل الكتب الأخرى.

– 5قصة قصيرة "ستموت الليلة" نُشرت ورقيّاً، في كتاب الرعب المُجَمّع "صحائف إبليس" الذي صدر عن دار "المكتبة العربية للنشر والتوزيع" وشارك في معرض الكتاب2018.

– 6 نشر مجموعته القصصيّة الثانية «سقوط القاهرة» إلكترونياً، مع «دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني» 2018، وتم إعادة رفعها في في كثير من مواقع تحميل الكتب الأخرى.

– 7نشر كتاب «مقالاتي» إلكترونيا في «دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني»2018.

– 8قصة قصيرة بعنوان «مخاض حب» نُشرت ورقيّا في كتاب «صندوق الدنيا» المُجمّع الصادر عن «دار زين للنشر والتوزيع» المُشارك في معرض القاهرة الدولي للكِتاب2019.

– 9قصة قصيرة بعنوان «القمر الدامي» نُشرت إلكترونيّاً بكتاب «قصص وحكايات» الصادر الكترونيّاً عن «دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني»2019.

–10قصة قصيرة بعنوان «الضرّة» تم فوزها بمسابقة القصة القصيرة، للنشر بكتاب «حكايات عبر الزمان» المُجمّع والصادر عن "دار تويتة للنشر والتوزيع" والمشارك بمعرض الكتاب2020.

–11قصة قصيرة بعنوان «قيلولة الزنابير» تم فوزها بالنشر الورقي في كتاب مُجمّع بمسابقة «عندما ينطق الحرف» عن صفحة "مسابقات أدبية" و "دار لوتس للنشر الحر" وتشارك في معرض القاهرة الدولي للكتاب 2020

الفهرست

أنشودة الموت.............. ٧

كائن لا يَحتَمِل ثِقَله ١٣

موسم الخطيئة............ ٢٠

العائدون ليلًا ٢٩

زمهرير................ ٣٥

الساخِطان.............. ٤٧

مسارب اللاوعي............ ٥٣

اللحم والمش.............. ٥٧

الخِضر................ ٦٩

شيماء................ ٧٥

الشفق الدامي ٨٢

المُغفَّل................ ٨٩

إيمان.. ٩٦

إيمان ٢.. ١١٥

مشهد ساخن..................................... ١٢٣

لذّة السقوط..................................... ١٢٩

سراب أغسطس ١٣٦

قُربَان.. ١٤٨

آلام آدم ١٥٨

باب الجنة.. ١٦٥

نبذة عن المؤلف.................................. ١٧٥

الفهرست.. ١٧٨